ذكريات لا مذكرات

بقلم

ثروت أباظة

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي ـ الفجالة
ت : ٥٩٠٨٩٢٠

- ١ -

استطـــــراد

لست أدرى أية خاطرة قذفها القدر على ذهنى فجعلتنى أفكر فى كتابة هذا الكلام الذى أكتبه الآن . والذى لا أستطيع أن أعرف له عنوانا يصفه . فمن المؤكد أنه ليس مذكرات فإننى عن معرفة بنفسى وليس عن تواضع لا أرى أننى من هؤلاء الذين يجدر بهم أن يكتبوا مذكرات . وهو أيضا ليس حكايات مؤلفة ولا هو رواية مما ألف الناس أن يقرأوا لى .

هو أقرب ما يكون إلى ذكريات كما اخترت العنوان وأرجو ألا أكون قد اعتسفته اعتسافا . فإن جنحت هذه الذكريات إلى القصة فهى قصص من صنع السماء ليس لى عليها إلا عمل الناقل لا الخالق . وإن جنحت إلى رسم شخصيات مما تعودت أن أكتب أحيانا فهى الشخصيات أتحرى فى رسمها الصدق لا الفن فهى إذن صور فوتوغرافية وليست صورا قلمية أضفى عليها من خيالى ما أشاء لأجعلها تبدو كما أريدها أن تبدو .

فالشخصية المرسومة قد تكون عدة أفراد جمعتها أنا فى فرد واحد . ولكن هذا الذى ستشاهده فى هذه الصفحات هى شخصيات عرفتها وستدرك حقيقتها حين تجد اسمها الحقيقى الذى يعرفه من عرفها يعلن عن أنها بنت الحياة وليست من بنات الخيال ولا هى من شخوص لروايات .

أحسب أننى اليوم وأنا أقارب الخطو إلى ستينيات عمرى لا يفصلنى إلا سنوات قلائل ، نظرت إلى أيامى الماضية فوجدتنى قد مررت بأقوام

كثيرين وبعهود شتى ربما لا تكون فيها غرابة ولكن خيل لى أن فيها طرافة . فقد نشأت فى بيت أبى المغفور له إبراهيم دسوقى أباظة باشا وهو رجل من رجال السياسة فى عصره ، ورجال السياسة فى مصر يختلطون بكل الناس من شتى النحل والمهن . وأكثر صلتهم بناخبيهم الذين ينتخبونهم ليكونوا نوابهم فى المجالس النيابية . وقد كان أبى عضوا فى مجلس النواب منذ تكوّن إلى أن انتهت الحياة النيابية فى مصر عام ٥٢ ، فليس غريبا إذن أن أكون أنا على معرفة تامة بالحياة منذ وعيت الحياة . وهل الحياة إلا الناس وقد ولدت فى زحامهم وعشت بين أمواجهم وشببت عن الطوق وأنا أتنفس الهواء الذى يتنفسون ، وربما عرفت من أفواههم خفايا حياتهم التى يضنون بها على خاصتهم الأقربين ، فقد طالما قصدوا إلىّ لأكون شفيعهم إلى أبى والحديث إلى الابن الصغير أكثر يسرا من الحديث إلى الأب الذى يحيط به جلال شخصيته ووظيفته نائبا أو وكيلا لمجلس النواب أو وزيرا .

وقد عرفت الحياة وأبى واحد من هؤلاء الثلاثة ، فقد ولدت عام سبعة وعشرين وتسعمائة وألف وكان هو عضوا بمجلس النواب ، وسمعت فيما بعد أنه كان مديرا لمكتب رئيس الوزراء محمد باشا محمود عام ٢٨ ، ثم مديرا لمكتب عدلى يكن عام ٢٩ ، ثم عاد بعد ذلك إلى مجلس النواب نائبا ، ثم صار وكيلا للمجلس مرتين مرة فى عام ٣٠ وأخرى عام ٣٨ .

وما دمت قد عرضت لما سمعته عن أبى فقد يحلو لى أن أروى ما سمعته عن نفسى ، وإن كان قد خطر لى أن أروى مواقف أبى فى ثورة ١٩ إلا أننى عدلت عن ذلك لأسباب تواثبت تباعا إلى ذهنى . الأول أننى لو دلفت من هذا الباب لاحتاج الأمر إلى كتاب بأكمله ، والثانى أن هذه



فى افتتاح البرلمان : دسوقى أباظة وبجواره أحمد عبد الغفار

المواقف مكتوبة فى كل الكتب التى تناولت ثورة ١٩ ، والثالث هو أننى أستطيع أن أروى بقلمى قصة صغيرة سمعتها ولا تحتاج روايتها إلى مشاهدة وحضور . أما إذا رويت عن أبى فى ثورة ١٩ فلا بد لى أن أكون معايشا لهذه الفترة معايشة تسمح لى أن أكتب عنها ، وهذا ما لم يحدث وما كان يمكن أن يحدث وقد تزوج أبى من والدتى فى عام ٢٤ .

ومما روى لى أن الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد كان من أشد أنصار سعد باشا زغلول ، وكان العقاد صاحب قلم عنيف شديد الوطأة على من يخاصمهم فى الرأى . وحدث أن كتب عدة مقالات يهاجم فيها محمد محمود باشا وكان الهجوم فيه سباب كثيف ، حتى لقد وصف محمد محمود بالشقى محمد محمود . ثم كتب مقالا آخر بعنوان الشقى رقم كذا وكأنما محمد محمود أصبح من نزلاء السجون الذى يعرفون بأرقامهم . وضاق محمد محمود بهذا الهجوم ، وفى نوبة من نوبات الضيق الشديد منه أقبل عليه أبى فقال له محمد باشا :

ـ أيرضيك ما يكتبه العقاد ؟

وقال أبى :

ـ لا .. لا يرضينى وأنا قادر على الرد عليه بما يسكته ولكن بشرط واحد .

وقال محمد باشا :

ـ ما هو :

قال أبى :

ـ تنزل مقالاتى إلى مطبعة السياسة مباشرة ولا يقرؤها الدكتور هيكل رئيس التحرير ، فهو لا يرضى منى العنف فى المقالات وسيحاول أن يخفف من قسوتها .

فقال محمد باشا :

ـ لك هذا .

وكتب أبى مقاله الأول وكان أبى يوقع مقالاته عادة بتوقيع الغزالى أباظة ، ولكنه فى هذه المرة اختار أن تكون مقالاته ضد العقاد بعنوان « ثروت » ، وكان عمرى فى ذلك الحين سنة واحدة فقد كانت هذه المساجلة فى عام ١٩٢٨ وظهرت المقالة الأولى ثم الثانية فإذا بالعقاد يتوقف عن مهاجمة محمد محمود ويلجأ إلى المحكمة رافعا الدعوى على الدكتور هيكل رئيس تحرير السياسة التى نشرت المقالتين وعلى « ثروت » صاحب التوقيع ، وضحك الدكتور هيكل من فكرة تقديمى إلى المحكمة وقال لأبى مازحا :

ـ عليك أن تحمل ثروت على كتفك وتأتى به إلى المحكمة .

وكتب أبى بعد رفع الدعوى مقالة ثالثة ينهى بها هجومه على العقاد ، وأذكر أننى ذهبت إلى لقاء أستاذنا العملاق عباس العقاد وأنا فى مطالع الشباب حوالى عام ٤٥ وقدمنى إليه تلميذه العوضى الوكيل . فما أن سمع اسمى وعرف من أنا حتى ضحك ضحكته العريضة النقية وقال وهو يرحب بى :

ـ بينى وبينك ثأر قديم يا عم ثروت .

ثم قامت بينى وبينه بعد ذلك تلك العلاقة التى نعم بها كل تلامذته وإن كان صغر سنى لم يتح لى أن أكثر من الذهاب إليه فى ندوة الجمعة ، ولكنه فى كل مرة كان يلقانى فيها كان يرحب بى ترحيبا شديدا . وقد صار بعد ذلك من أحب الناس إلى أبى كما أصبح أبى من أحب الناس إليه . حتى لقد نظم فى مدح أبى عدة قصائد يقول فى إحداها :

نكرمه نكرمه   وما نرويه نعلمه
ولم ننشئ له فضلا   ولكنا نترجمه
فتى ترضى سجاياه   ويصدق قلبه فمه
وللفنان فى ناديه   مغناه ومغنمه
وحب الخير فى دمه   فكيف يخونه دمه

وقال فى رثائه قصيدة تعتبر من عيون الشعر العربى كافة يقول فيها:

أقيموا الوزن أو ميلوا   فما إبراهيم مجهول
فتى ميزانه بالقسط   عند اللّه مكفول
له فى كل تاريخ   من المجد أكاليل
سلوا الأوطان ينبئكم   بما يعلمه النيل
يحيى ناصر المصرى   والمصرى مخذول
وأول رافع صوتا   وسيف الحرب مسلول
وللمحتل فى مصر   على كل فم غول
له فى برها جيش   كجيش النمل موصول
وفى البحر أساطيل   وفى الجو أبابيل
إذا لم ينعه الأحـ   ـياء والدنيا أباطيل
نعاه فى العزيزية   مدفون ومجدول
وجيل فى حمى التاريخ   لا يشبهه جيل

* * *

سلوا الآداب ينبئكم   به الصداحة القول
يردد ذكره فى الشعر   تسبيح وترتيل
ويهتف باسمه فى القو   ل مطبوع ومنقول

ويحمد فضله فى العر　　ب منسوب ومدخول
فلا الماضى بمنسىّ　　ولا الحاضر معزول
وراعى الشعر لا ينسا　　هُ مرعى منه مطلول
سلوا الإحسان والإحسا　　ن طبع فيه مجبول
وأقرب شأوه فى الجو　　د مشروب ومأكول
وكم أعطى ولم يسأل　　وبعض السؤل مطول

* * *

سلوا الاحساب لا عز　　يدانيها ولا طول
وللآساد والأشبا　　ل فى أعلامها غيل
ذووه من بنى مصر　　هم الغر البهاليل
ومن أحسابه كسب　　بمسعاه وتحصيل
برأى زانه فى القصـ　　ـد إجمال وتفصيل
وصبر راض دنياه　　وأضنته العراقيل
سلوا سيرته الحفلى　　وللسّيرة تسجيل
سلوا الشلال .. والمجرى　　من القطرين مفصول
لتمّ القرب لولا قا　　عد بالشرق مشلول

* * *

خصال كلها نبل　　وإفضال وتفضيل
وذكرى كلها حمد　　وتشريف وتبجيل
فقدناه ونادى الرأ　　ى فى القطرين مأمول
فلا يسعد بالمثوى　　ومثوى الخير مأهول
له من بره أنس　　وشمل ثم مشمول
ومن سيرته الفيحا　　ء ترويح وتطليل

لـــه فـــى مـــنزل الرضـــوا ن تســـــليم وتـــــــنزيل
وأجـــر مـــن ثـــواب اللّـــ ــــه عنـــد اللّـــه مقبـــول

والعجيب أن أستاذنا العقاد هو أول من نوه بى ، وكان ذلك حين جمع الأستاذان أحمد عبد المجيد الغزالى والعوضى الوكيل مقالات أبى وخطبه فى كتاب أسماه وميض الأدب بين غيوم السياسة ، وظهر الكتاب فى عام ١٩٤٨ وكنت فى هذا الحين قد بدأت أكتب مقالاتى فى مجلتى الرسالة والثقافة ، ولكننى طبعا كنت ما أزال صغيرا لا يكاد يعرفنى إلا الأدباء المتخصصون . وقد اتجه الشاعران الأستاذان الغزالى والعوضى إلى أستاذهما وأستاذنا العقاد وطلبا إليه يكتب مقدمة للكتاب الذى جمعاه من أعمال أبى الأدبية . وقبل رحمة اللّه ذلك ولكن المفاجأة الكبرى بالنسبة لى هى قوله فى المقدمة حين تكلم عن صلة الأسرة الأباظية بالأدب .

« وناهيك بما نقرؤه لفكرى وعزيز وثروت من رصين الشعر وطريف المنثور » .

وقد اعتبرت ذكر اسمى فى هذا المكان وما زلت أعتبره من أعظم الأوسمة التى نلتها حتى اليوم . فقد كنت فى المطالع الأولى من شبابى وأن يقرن اسمى بالعملاقين الأباظيين عمى فكرى باشا وعمى وحماى فيما بعد عزيز باشا أمر اعتبرته مفخرة كبرى ولا زلت أعتبره كذلك .

وما دمنا نتكلم عن عملاق الأدب العربى التاريخى أستاذنا العقاد ، فينبغى أن أذكر واقعة حدثت بينى وبينه فى عام ١٩٥٤ وكانت تلك السنة سنة حاسمة فى تاريخ ثورة يوليو . فقد سمحت السلطات فى مارس من هذا العام بحرية الصحافة وأتاحت لكل صاحب رأى أن يكتب رأيه

وطلبت أن يقول ما يشاء لمن يشاء ، وكان أهم سؤال طلبت الثورة الإجابة عليه إن كان الأفضل لمصر أن تكون الجمهورية فيها برلمانية أم رئاسية .

وانبرى العقاد بمقال كتبه فى الأخبار يطالب بأن تكون الجمهورية برلمانية ، ولكن المقال كان غاية فى العنف رافضا كل ألوان الدكتاتورية أو الحكم العسكرى .

وفى نفس اليوم الذى ظهر فيه المقال كان لى عمل فى الإذاعة القديمة فى شارع الشريفين ، وفوجئت وأنا أدلف من الباب الرئيسى للإذاعة بأستاذنا العقاد يهبط السلم وحوله جماعة من محبيه ومريديه ومن موظفى الإذاعة الذى حرصوا أن يكونوا فى توديع العملاق العظيم .

وقال لى أستاذنا :

ــ لقد قرأت مقالاتك .

وكنت كتبت فى هذه الفترة مقالات بنفس العنف والرفض للديكتاتورية فقلت له :

ــ هذا شرف لها ولى .

فقال :

ــ هل قرأت مقالى اليوم ؟.

فقلت :

ــ طبعا مثلما أقرأ كل حرف يخطه قلمك .

ــ أرأيت لقد قلت لهم ...

ومضى يذكر أهم العناصر التى ضغط عليها فى مقاله ومضيت أنا أقول ... نعم ... نعم حتى إذا سكت قلت له :

ــ سعادتك تسمح لى بكلمة على انفراد .

فلف ذراعى بذراعه ومضينا نتنحى جانبا بشارع الشريفين وقلت له :

ـ سعادتك تعرف أن وراءك جواسيس .

وكنت قد عرفت ذلك فعلا فإذا الرجل العملاق يقول :

ـ نعم أعرف وتليفونى مراقب أيضا .

فقلت له :

ـ سعادتك الآن لا تحتمل السجن الذى احتملته فى عام ٣٠ كما أن السجن الآن نوع آخر غير الذى عرفته . ونحن أبناؤك دعنا نحن نسجن وقل لنا ما تريد كتابته وأمله علينا إذا شئت نوقعه بأسمائنا ، ولكن من أجلنا نحن أبناءك إن لم يكن من أجل نفسك لا تعرض نفسك لهؤلاء الوحوش .

فنظر إلىّ مليا وصمت لحظات ثم قال :

ـ أترى ذلك ؟

قلت :

ـ ألا ترى أنت ذلك ؟

قال :

ـ لابأس .

ولا أعتقد أنه كان سينفذ الوعد ولكن على كل حال أنقذه من نفسه انتهاء فترة الحرية ومنع كل الكتابات الحرة مهما تكن هينة الشأن ، وإغلاق جريدة المصرى والاستيلاء عليها وعلى أموال أصحابها.

* * *

ويلى ... لكم استطردت . وأين أنا الآن مما أريد أن أرويه من ذكريات ؟ لقد كان الحديث عن مولدى فإذا أنا أقفز إلى عام ٥٤ .

ولكننى أمسكت يد عملاق الأدب العربى على مدى التاريخ فكيف لا تغرينى يده أن أقفز كل هذه السنوات ؟ وكيف أذكره ولا أستطرد وهو فى ذاته أسطورة كاملة خالدة على الزمان .

* * *

لأعد إذن إلى تلك الأيام التى بدأت فيها أعى الحياة حولى ، هناك أشياء كأحلام بعضها واضح المعالم فى ذاكرتى وبعضها تحول بينى وبينه سحابات أشبه ما تكون بأستار رقيقة .

ويختلط أمرها فى ذهنى فما أدرى أهى أشياء رأيتها رأى العين أم أن رواية أبوى لى عنها جعلتنى أتمثلها كحقيقة رأيتها رأى عين ، بينما هى مسموعات التصقت بنفسى وهيأت لى نفسى هذه أنها مرئيات .

من هذا ما قيل لى أننى مرضت مرضا خطيرا بالدوسنتاريا لأن أمى صحبتنى معها لتحضر العزاء فى عمها إسماعيل باشا أباظة ، وكان اليوم شديد القيظ وكانت الرياح الحارة تلفح مصر بسمومها .

وقد تعرضت فى هذا المرض لخطر الموت . وأشرف على علاجى صديقان لصيقان لأبى كلاهما أصبح واسع الشهرة هما الدكتور إبراهيم شوقى الذى أصبح باشا بعد ذلك ، والآخر الدكتور حافظ عفيفى باشا ، ويقول أبى إن صاحبة الفضل فى شفائى هى عمتى التى تحدت الموت والمرض فأصرت أن تسهر الليل جميعه تنفذ أوامر الأطباء .

ومما رواه لى أبى أننى فى سنتى الثانية كنت أدرك أن ستى والدته لا تحتمل السهر ، فكنت أرجو بلسان الطفل الأعجمى أن تقوم لترتاح ، فإذا أبت وأصرت أن تبقى تناومت وتوقفت عن التأوه حتى تقوم ستى إلى منامها ، فإذا تأكدت أنها قامت عدت مرة أخرى إلى اليقظة والتأوه.

ومن المؤكد أننى أذكر ستى هذه فقد كان لها جناح خاص فى الدور الأول من منزلنا ببلدتنا غزالة ، التى تبعد عن الزقازيق سبعة كيلو مترات . وكان هذا الجناح منفصلا عن البيت متصلا به فى وقت معا . فقد كان علينا حتى نذهب إليه أن نخترق حجرة كبيرة كنا نعتبرها حجرة الاستقبال التى تلتقى فيها ستى بالزائرات من سيدات البلدة أو من الأقارب ، ثم علينا بعد ذلك أن نقطع بهوا يقسمه قسمة ظالمة دولاب كان أشبه بالكيلار ، وفى هذا الدولاب باب يؤدى إلى البهو الواقع أمام حجرة ستى وعمتى ، فقد كانتا متلازمتين حتى فى النوم . وكان لحجرة نومهما ثلاث نوافذ تطل إحداها وهى التى تتوسط الجدار الأيسر على ما يسمونه الدوار حيث تربى الدواجن وتصنع القشدة ، بأن يترك اللبن الطازج فى المتارد حتى يتكون له سطح سميك هو القشدة الفلاحى المعروفة ، وحيث تصنع أيضا الجبنة القريش من اللبن بعد أن تنزع قشدته .

وكانت ستى وعمتى تشرفان من تلك النافذة على أعمال الدوار جميعا ، من إطعام الدواجن إلى شتى فروع الأعمال المنزلية .

وبجانب باب حجرتهما توجد نافذة عجيبة الشأن لأنها كانت تطل على البهو . ولم أر فى حياتى بعد ذلك نافذة تطل على بهو إلا تلك النافذة ، وكانت عمتى وستى كما أتذكرهما دائما جالستين على حاشية تحتها بساط على الأرض . لا تتركان مكانهما هذا حتى إننى كل ما أذكره عن ستى يكاد ينحصر فى جلستها هذه تحت هذا الشباك .

أما الحائط الأيمن فقد كانت تتوسطه نافذة تطل على ما كنت اسميه حديقة ستى . ولم تكن حديقة ستى إلا تكعيبة عنب خشبية تحيط بفناء صغير نخلص إليه بسلم من أربع درجات أو خمس ، ونستطيع من هذا

الفناء أن نخرج من باب خشبى ضخم سميك إلى خارج البيت إلى ما كنا نسميه بالمدحاية . وتحت تكعيبة العنب التى تحيط بالفناء مصطبة متصلة بالحوائط الأربعة التى تصنع ما كنا نسميه بالحديقة .

وكانت ستى شديدة الحدب علىّ حتى أذكر أنها كثيرا ما كانت تعطينى ريالا من الفضة حين أنزل إليها فى أول النهار لألقى عليها تحية الصباح . وما كنت أدرى ماذا أصنع بهذا الريال إلا أننى أخرج إلى أترابى من أبناء القرية ، وكانوا هم أصحاب الرأى فى الطريقة التى ننفق بها هذه الأموال الطائلة .

وكان يوسف الذى عمل كلافا للبهائم بعد ذلك ينال منى دائما قرشا صاغا مقابل أن يصنع لى سيارة من الطين وكان يضع لها زجاجا . ولعل هذا القرش هو المبلغ الوحيد الذى أذكره بين العشرين قرشا جميعا التى لا أذكر فيم كنا ننفقها .

فى بهو ستى هذا نلت أول صفعة على وجهى فى حياتى . ما دريت يوم نلتها السبب الذى انهالت على وجهى من أجله ، ولكننى عرفته فيما بعد مرويا لى . وأشهد أننى كنت مظلوما .

لقد حدث أن سقطت ستى على رجلها ، وأذكر أن أبى استدعى الدكتور فرنجلوس من الزقازيق وأذكر أن اليأس والحسرة والحزن كانوا مرتسمين على وجه أبى بصورة غاية فى الألم . وأنا أذكر الآن أننى لم أكن أعرف الموت ولا ما يحمله من معان . وإذا شئت أن أصور اليوم ما كان يدور أمامى فما هو بالنسبة إلىّ إلا شخوص تتحرك أنظر إلى تحركها ولا أعى معانى الأفعال التى يقومون بها .

وماتت جدتى .

ولا أدرى لماذا ذهبت أنا إلى البهو التى كانت جالسة فيه و لم أحفل مطلقا بالسرادق الضخم المقام بالخارج ، ولا بكل ما يحدث فى هذا السرادق ، ولا بالجموع التى تفد إليه أو تخرج منه . إنما وجدت نفسى واقفا فى البهو لا أصنع شيئا ، وفجأة قدم إلىّ عمى الشقيق عبد اللّه فكرى أباظة الذى أصبح فيما بعد يحمل رتبة البكوية ، والذى عمل لفترة طويلة وكيلا لوزارة التجارة . وكان هذا الرجل شديد العنف فى مظهره شديد الطيبة فى حقيقته . وربما كان يرتدى العنف قناعا يخفى به عن الناس مدى حبه للناس ومدى رهافة مشاعره ورقّة فؤاده .

فى هذا اليوم صفعنى عمى عبد اللّه فكرى صفعة شديدة غاية الشدة . وبكيت وذهبت إلى أمى وأنا أبكى وأبلغتها بهذه الصفعة . والعجيب أننى أذكر إنها قالت فى ثبات وفى غير اهتمام :

— وماله ... وما الغرابة أن يصفعك عمك ؟

ولا أذكر هذه الجملة إلا وادهش لها . إنها حتى لم تهتم أن تسأل عن سبب الصفعة ، الذى عرفته هى فيما بعد وعرفته أنا بعد ذلك بسنوات .

لقد سألنى عمى :

— أين أبوك ؟

فقلت دون أى تفكير .

— فى الزينة .

وكنت فى هذه السن أنطق الزاى وكأنها الجيم التى ينطقها الأوربيون إذا نطقوا اسم جون . فصفعنى .

أليس لى الحق أن أرى نفسى مظلوما ؟

لا أذكر أن عمى عبد اللّه ضربنى بعد ذلك قط إلا مرة واحدة وكان أبى جالسا . كنا على المائدة فى منزله وكنت أضع الملعقة وتجويفها إلى أعلى فنبهنى عمى عبد اللّه أن أجعل التجويف إلى أسفل . وسهوت وكررت الخطأ فنبهنى ثانية ، ثم سهوت وكررت الخطأ ووضعت يدى بجانب الملعقة ، وكان يجلس أمامى فإذا هو فى حركة مفاجئة يقف ويهوى بمنتهى العنف على يدى ويأمرنى أن أصحح وضع الملعقة .

ربما كنت فى الثانية عشرة من عمرى فى ذلك الحين . فأنا أذكر الواقعة تماما وأذكر أن أبى امتعض مما صنعه عمى وظهر الامتعاض على وجهه ، ولكنه لم يعلق مطلقا مع أن عمى كان يعامل أبى معاملة الابن لأبيه . حتى لقد كتب له إهداء على إحدى صوره إلى أبى وأخى وأستاذى ومثلى الأعلى .

* * *

— ٢ —

أنا والتعليم

كانت أغلب إقامتنا بالقرية فأنا أكبر إخوتى و لم أكن قد انتظمت فى المدارس بعد ، و لم يكن يربطنا بالقاهرة إلا مجلس النواب حين تكون هناك جلسات و كان أبى لا يتخلف مطلقا عن المجلس . ولكن لا أدرى لماذا أذكر أن إقامتنا بالقرية كانت تتطاول ، ربما كان المجلس معطلا فى هذه الفترات .

وأذكر أننى ذهبت قبل أن أبدأ التعليم مع أبى إلى الإسكندرية مرات، و كان أبى يستأجر بيتا مفروشا هناك .

وأذكر أنه كان يصحبنى إلى شاطئ سان ستيفانو و كان عم أحمد بخيت خادمه الخاص يذهب معنا . و كان أبى يجعلنى أمسك برجليه ويسبح بى فى الماء وندخل إلى الأعماق . ولهذا أذكر أننى لم أخف حين بدأت تعلم العوم بعد ذلك على يد خالتى . و كان تعليمها ساذجا وما زال هو زادى من السباحة حتى اليوم . فإذا رأيتنى فى الماء ورأيت سباحتى أدركت أنها سباحة من يستطيع أن يبقى أنفه فوق سطح الماء فقط ، فهى سباحة عاجزة بلا أسلوب ولا إتقان ولكنى سعيد بها غاية السعادة . فأنا عن طريقها أستطيع أن أصل من الماء إلى حيث لا تلامس أقدامى الرمال وأنا ليس لى مأرب فى البحر أبعد من هذا .

بدأت تعليمى الدراسى إذن فى غزالة ، وقد شاء القدر أن يختار أبى من بين جميع المدرسين الإلزاميين مدرسا أعتبره أنا حتى اليوم أعظم مدرس للأطفال يمكن أن تجود به الحياة .

إنه الأستاذ أحمد حسين القرعيش الذى أصبح الحاج أحمد حسين القرعيش . وقد كان لحمله هذا اللقب قصة فى غاية الطرافة . فقد كانوا ينادونه بأحمد أفندى لأنه كان يلبس الحلة والطربوش وهو فى طريقه إلى المدرسة الإلزامية التى كان يدرس بها . فقد كان يعمل بمدارس قرى أخرى و كان يخترق قرى عديدة فكان لا بد أن يلبس حلته كاملة والطربوش فلم يكن عجيبا أن ينادوه بأحمد أفندى . وظل هذا لقبه حتى بعد أن نقل إلى مدرسة غزالة . فقد ظل أيضا يلبس حلته كاملة فى المدارس إطاعة منه لأوامر الوزارة .

ثم حج . وعاد من الأراضى الحجازية . وراح أهل القرية ينادونه بأحمد أفندى على عادتهم فإذا هو يصيح بهم :

— يا نهار أسود أكنت حججت ودفعت مائة جنيه وزيادة لتقولوا أحمد أفندى ؟ .. من لا يقول الحاج لن أرد عليه .

وكان الحاج أحمد شاعرا رقيقا وإنى أذكر كثيرا من شعره ولكننى أحب له هذه الأبيات :

قالت أحبُّك صادقٌ   قلت الدلائل قاطعاتُ
قالت وعهدك قلت باق   مارعت عهدى الحياة
قالت وحبى قلت ذاك   هو الأمانى الكاذبات
قالت وعهدى قلت فصـ   ـل مثلته الغانيات
ضحكت وقالت هكذا   من قبلك العشاق ماتوا

وشاء حظى السعيد أن يكون هذا الرجل الشاعر خفيف الظل هو معلمى الأول . عليه تعلمت الخط الأفقى والخط الرأسى وحروف الهجاء الأولى والحساب من جمع وطرح إلى ضرب إلى قسمة ، وكان يحمل لى

فى جيبه أقراص النعناع فإذا أحسنت الإجابة أعطانى قرصا من النعناع مع تصفيق شديد وإظهار للإعجاب وكأننى أتيت عملا لم يسبق لأحد أن أتى به .

ولم يكن من الممكن أن يستمر الحاج أحمد فى إعطائى الدروس إذ سرعان ما انتقلنا إلى القاهرة وتولى أمرى فى الدروس الخاصة مدرس آخر من غزالة أيضا واسمه عليوه أفندى عبد الله . وكانت طريقة عليوه أفندى مختلفة كل الاختلاف عن طريقة الحاج أحمد . ولم يكن الحاج أحمد يحب عليوه أفندى فأنشأ أبياتا أربعة أو خمسة وقدمها لأبى يرجوه فيها ألا يتولى عليوه أفندى تدريسى أذكر منها :

أأنشئ روضا فى حماك معطرا ويأتى عدوى يجتنى ثمراتى

وأُعجب أبى بالأبيات ولكنه مع ذلك أبقى عليوه أفندى مدرسا لى .

وقد ظل يدرس لى اللغة العربية والحساب حتى حصلت على شهادة الابتدائية . كما درّس أيضا لإخوتى ثم درس لابنتى وابنى أطال اللّه عمره ووهب له الصحة والعافية .

وقد كان عليوه من أخلص المدرسين الذين عرفتهم ، إلا أنه كان لا يبالى مشاعر التلاميذ فى سبيل أن يؤدى واجبه ، وأذكر أنه كان أحيانا يتخلف يوما عن الدرس فأحمد أنا اللّه وألعب الكرة ، وأقدر أنه لن يأتى إلا فى الموعد التالى الذى يكون قد حدده بعد يوم التخلف بيومين أو ثلاثة . فألعب أنا الكرة فى اليوم التالى لتخلفه وأنا واثق أننى حر . فاليوم ليس محددا للدرس ، وأفاجأ بعليوة أفندى قادما كالقضاء المستعجل فى اليوم الذى . لا أتوقعه فيه تعويضا عن اليوم الذى أخلفه .



الدرس فى البيت . .

ولا أذكر أن غما لقيته فى طفولتى مثل ذلك الغم الذى يشملنى وأنا أراه قادما فى غير موعده . وكم بكيت وكم حاولت العصيان ولكن دون فائدة .

وكان عليوه أفندى يجيد الشرح وكنت أفهم ما يلقيه منذ المرة الأولى ولكنه يسير على طريقة لا يغيرها من تلميذ إلى تلميذ . وكم عانيت من تمسكه بطريقته هذه . فقد قرر هو أن يخصص درسا للشرح والدرس الثانى للتطبيق . وليس يعنيه أن يكون التلميذ قد فهم الشرح من المرة الأولى إنما المهم عنده أن ينفذ منهجه الذى وضعه هو لنفسه . فهو يشرح مرة ثانية وثالثة ورابعة ولا ينتهى من الشرح حتى ينتهى الدرس . وأكون أنا قد سرحت فى غير الدرس من ملاعب الطفولة منذ المرة الثانية للشرح ، حتى إذا جاء موعد التطبيق أكون أنا قد احترقت من الغيظ لقوله كلاما عرفته من المرة الأولى وأكون أيضا قد نسيت كل شىء من القاعدة .

وأذكر أن أبى كان يحب أن يقضى الشتاء فى حلوان ، فكان عليوه أفندى يجشم نفسه مشقة الحضور إلىّ أحيانا فى حلوان إذا كانت المدرسة فى إجازة فلم يكن ذهابنا إلى حلوان يمنعنى أن أذهب إلى المدرسة طبعا . وفى يوم كنت ألعب أنا ورفيق طفولتى محمد زكى أباظة وكان عليوه أفندى يدرس له هو الآخر . ولم أكن ولا محمد ننتظر قدوم عليوه أفندى . ورآه محمد قادما من بعيد ولم يرنا هو . فأسرع محمد قائلا :

— يا نهار اسود .. عليوه أفندى .. تعال ندخل البيت .

وطاوعته وأنا لا أدرى ما سيفعل . أقفل باب البيت . وكان يوما من أيام حلوان الساطعة الشمس حتى كأنه يوم من أيام الصيف . وقف محمد أمام باب الدخول وأوقفنى معه ، ودق عليوه أفندى الجرس وحين

جاء الخادم ليفتح طلب محمد طلبا وكأنه هو الذى دق الجرس . ووقف عليوه أفندي أمام الباب والشمس تنصب عليه بكل سخطها فيضع الجريدة التى لا يتخلى عنها مطلقا على رأسه ويدق الجرس ثانية . ويأتى الخادم ويصرفه محمد ، ويظل الأمر كذلك فترة تجاوزت نصف الساعة حتى تمردت أنا على محمد وأنا أرى عليوه أفندى مصرا على البقاء يرفع قدما إلى الهواء ليريحها ثم يضعها ويرفع الأخرى وقد أخذ منه التعب والشمس كل مأخذ . ولكنه أبى أن ينصرف . . وأعطانا الدرس .

ومما أذكر له أنه غضب على مرة غضبا شديدا فأمرنى أن أفتح يدى وأهوى بالمسطرة على يدى معتمدا على أن أبى قال له أمامى أنه يستطيع أن يضربنى إذا أنا لم أمتثل له . وبالصدفة مرضت أنا فى ذلك اليوم وارتفعت حرارتى ارتفاعا شديدا . وكان أبى شديد العطف علىّ وإن كان يحرص أن يخفى هذا العطف بكبرياء العظماء من الرجال ، وقد يقول قائل وأى أب لا يشفق على ابنه إلا أن يكون ذلك شذوذا فى الطبيعة ، ولكننى أعتقد أن مرضى وأنا فى الثانية من عمرى ومولدى وأبى فى الأربعين من عمره جعلا إشفاقه على أكثر من إشفاق الآباء على أبنائهم . وربما كان هذا هو السبب أننى كنت أصحبه فى غدواته وروحاته منذ أنا فى الرابعة من عمرى ، وكنت أجلس معه فى مجالس الكبار منذ لا أذكر متى وكان عمى عبد اللّه يقول له : سيب ثروت يلعب مع الأطفال . فيقول أبى فى حسم :

ـ خليه قاعد .

وكان يصحبنى معه إلى مجلس النواب وأنا فى الخامسة أو السادسة من عمرى . حتى لقد رآنى يوما المرحوم توفيق رفعت باشا وأنا جالس فى مقاعد الزوار فى الطابق الأول ، فأشار إلى الساعى الواقف خلف

كرسيه على منصة رئيس مجلس النواب وأشار له إلىّ . وما لبث أن جاءنى الساعى يسألنى من أكون فقلت له ، فتركنى وعاد إلى توفيق باشا الذى أشار لى برأسه فلم يكن عجيبا أن يغضب أبى لضرب عليوه أفندى لى ضربا صاحبه ارتفاع فى الحرارة . وأنا حتى اليوم لا أدرى إن كانت هناك صلة بين ارتفاع حرارتى وضرب عليوه أفندى أم هى الصدفة المحض .

وأغلظ أبى القول لعليوه أفندى على غير مشهد منى ولكن عليوه أفندى روى كل شىء أمامى لعم أحمد خادمنا الذى كنت أوقره بكلمة عم لشخصيته ولأنه رئيس الخدم بالبيت ، وقد كان أبى ووالدتى يوليانه ثقة تامة فى كل ما يتصل بشئون البيت .

وقال عليوه لعم أحمد أن البك ــ يعنى أبى فلم يكن قد حصل على الباشوية بعد ــ قال لى : أصدقت حقا أنك يصح أن تضرب ثروت ؟ هل من المعقول أن تضرب طفلا فى سنه إلى درجة أن ترتفع حرارته ؟ أيرضيك هذا يا عم أحمد ، بقى مسطرة كالتى ضربتها له ترفع الحرارة ، طيب امرأتى طالق إن لم يكن قد أكل حلاوة وشطة ليرفع حرارته ويودينى أنا فى داهية .

والحقيقة أننى ذهلت وأنا أسمع هذا الحديث فأنا لم أكن أعرف أن الحلاوة والشطة يرفعان الحرارة ، بل إننى حتى الآن لا أتصور أنهما قادران على هذا الصنيع .

ولكن عليوه أفندى كان واثقا من هذا ثقة جعلته يقسم بالطلاق ، مع حبه الشديد للسيدة زوجته أم محمد التى كثيرا ما كان يفيض فى مديحها . وأغلب الظن أن عليوه ما زال حتى اليوم على ثقته هذه أننى أكلت حلاوة بالشطة . وأغلب الظن أيضا أنه من يقرأ هذا الحديث

الذى أكتبه لن يكف عن يقينه هذا علـى الأقـل لتظـل السيدة زوجتـه علـى ذمته .

ألا ترى أننى بترت حديثى عن الحاج أحمد القرعيش واستطردت فـى هذا الحديث عن عليوه أفندى ؟

كان لابد من هذا . فقـد استمرت رحلتـى مـع الحـاج أحمـد إلى أن اختاره اللّه إلى جواره ، ولم يقف الأمر بيننا عنـد الأستذة منه والتلمـذة منى فقد أصبح حين قـدر اللّـه لى هوايـة الأدب هـو صديقـى الأول فـى القرية ، لا يتركنى لحظة منذ قدومى إلى غزالة حتى أتركهـا . وقـد كـان لهذه الصلة أثر ضخم فى ثقافتى وفى أدبى ، وانضم إلينـا قريبـى الشـاعر الأستاذ توفيق عوضى أباظة وهو الآخر شخصية لم أر لها مثيلا فى حياتى كلها . فهو رجل فقير لم يدخـل مدرسـة ، وكـان كـل مـا يملكـه فدانـا واحدا كان يزرعه بذراعه . ولكنه علم نفسه بنفسه وكـان خطـه جميـلا ولكنه بطىء فى الكتابة كل البـطء لا عـن جهـل فهـو مـن أعلـم الذيـن عرفتهم باللغة العربية وآدابها ولكنه أصيب فى مرفق ذراعه اليمنـى فظـل حياته كلها لا يحركها فى سهولة .

قرأ كل الشعر العربى وحفظ أغلبه وكان يستعير الكتب مـن المكتبـة العامة ومن جميع مظانها . أعجب بالمتنبى فنقل ديوانه كله لأنـه لا يملـك ثمن اقتنائه . وأعجب بالبحترى فنقل ديوانه كله . كذلك فعل مع ديـوان عمر بن أبى ربيعه . ولك أن تتصـور مقـدار الصبـر والرجولـة والإصـرار التى يتحلى بها وأنت تعلم أنه بطىء فى الكتابـة . والحـق أنـه كـان فـى خلقه رجلا وكان صبورا على الحياة كريما عليهـا وعلـى نفسـه . وكـان معتزا بكرامته غاية الاعتزاز فى ظرف وخفة ظل لا يتأتيان إلا لقلة نـادرة من الناس . كتب خطابا إلى عزيز باشا أباظة وتعثر الخطاب فـى الطريـق

ولم يصل . وكان عمى عزيز فى ذلك الحين مديرا لأسيوط ومع ذلك رأى توفيق أن يشكو إلى عمه جمال الدين بك أباظة المستشار . فنحن فى الأسرة لا نقيم وزنا للمناصب وإنما القيمة عندنا بالسن ، والمكانة عندنا تتحدد بالعمومة والخؤولة . وكان يحفظ الشعر العربى كله من الجاهلية حتى شوقى ، وكان يرعانى أنا بالذات رعاية الأب لابنه لما لمسه عندى من حب للأدب ، فتوفيق حين اختار جمال بك لم يكن اختياره لمجرد العمومة فقد كان لعزيز باشا أعمام آخرون على قيد الحياة . وإنما هو فى ذكاء ولماحية اختار العم الذى يعتبر ظاهرة فى زمانه فى حب الأدب وفى الاطلاع على التراث الأدبى من بدايته إلى اليوم الذى يعيش فيه ، وكان إلى هذا جميعا نموذجا فريدا فى العفة والحياء حتى إنه لم يتزوج وأرجح أنه لم يتزوج لأنه خجل أن يخطب . وكان رحمه الله أيضا صورة مجسمة للطيبة ، هذا كله إلى تفقه فى القانون يندر أن نجد له مثلاً ، كتب توفيق إليه يشكو عدم إجابة عزيز باشا على خطابه ، وربما يجمل بى أن ألفت نظرك إلى بداية الأبيات التى كتبها توفيق وكأنه يكتب خطابا مما يدل على قدرته ولماحيته واستطاعته أن يقول بالشعر الأصيل كل ما يريد أن يقول .. إليك الأبيات :

جمال الدين والدنيا سلاما … يضوع شذى كأنسام الخزامى
وبعد فهل أتاك حديث قوم … نكلمهم فيأبون الكلاما
بعثت إلى عزيز القوم شعرا … أحييه فما رد السلاما
فإن يك أكبر الشعراء طرا … وأسماهم وأرفعهم مقاما
فقد نادى إله الناس موسى … وناجى العبد من خلق الأناما
وبنت النمل كلمها النبى … وبادلها المحبة والوئاما
فلست أقل من نمل ضعيف … وليس من أجل من ملك تسامى

ومن طرائفه التى أذكرها له أن أبى أهدى إليه عمامة ليكرم علمه الواسع بالتراث وبأركان الدين ، فكتب له أبياتا غاية فى الظرف يقول فيها :

توجت رأسى بالعمامة   وكسوتنى حلل الكرامة
فكأننى شيخ المراغة   فى المهابة والفخامة
لا فرق بينى فى الحياة   وبينه إلا الإمامة

ومرت سنوات وعين أبى وزيرا فكتب إليه برقية من بيتين يقول فيهما:

قل للوزير الألمعى مقالة   مشبوبة كذكائه المتوقد
الفأس قد أكلت يدى وأنا امرؤ   للطرس لا للفأس قد خلقت يدى

وأصدر أبى قرارا بتعيينه فى وظيفة كتابية بمصلحة الطرق والكبارى وأقمنا احتفالا له بلبسه الحلة لأول مرة ، وهكذا تخلى عن العمامة إلى الطربوش .

هذا الشخصان ... الحاج أحمد القرعيش وتوفيق عوضى أباظة كان لهما أثر ضخم فى حياتى . فقد بدأت أقرأ معهما الشوقيات منذ الإجازة الصيفية للسنة الأولى الثانوية حتى انتهيت من دراسة الحقوق تقريبا بشكل متصل فى جميع سنوات الحرب ، وبشكل منقطع بعد انتهاء الحرب ، وهذه التفرقة ليست بسبب الحرب ولكنها كانت محكومة بتولى أبى للوزارة من أكتوبر عام ١٩٤٤ واضطراره يقضى الصيف فى الإسكندرية مع الوزارة لمدة خمس سنوات متواصلة وهى المدة التى بقيها فى الوزارة .

كنا بعد أن يصعد أبى إلى الطابق الأعلى من منزلنا فى غزالة ، يجتمع ثلاثتنا حول كلوب فلم تدخل الكهرباء فى بيتنا إلا بعد بداية جلساتنا بسنتين أو ربما ثلاث سنوات . وعكفنا على قراءة شوقى و لم نقرأ مجتمعين غيره ، وكان كل منا يقرأ ما يشاء منفردا . وقد تفضل الشاعران بأن جعلانى أقرأ أنا ويستمعان هما ويعلقا ويتعمقا كل بيت حتى لا يبقى فيه معنى إلا ويصبح واضحا ظاهرا .

وفى الإجازة التى جاءت بين السنة الثانية الثانوية والثالثة الثانوية قال الحاج أحمد لى :

ــ أنت تكثر من اللحن بصورة مخيفة .

فقلت :

ــ لا يهم .

قال :

ــ كيف لا يهم . أتريد أن تكون أديبا وتلحن . إن القواعد مسألة بدائية يجب أن يتقنها كل متعلم فكيف لا يتقنها الأديب الكاتب . لن يحترمك قارئ أو مستمع لك إذا أخطأت فى النحو .

وأيد توفيق الذى أصبح توفيق أفندى كلام الحاج أحمد وأخذت الكلمتين فى ضلوعى و لم أعلق وأكملنا السهرة . ومضينا فى سهراتنا حتى انتهت الإجازة .

وحين بدأت الدراسة فى السنة الثالثة الثانوية أرغمت نفسى أن أقرأ وحدى بصوت مرتفع كل ما أقرأ سواء كان مذاكرة أو كتبا فى الأدب أو حتى فى الجغرافيا أو التاريخ أو الطبيعة . وحرصت أن أصحح لنفسى ما أقرأ وأعرب كل كلمة قبل نطقها وأنطقها بحركة إعرابها ، وبعد شهور قليلة استقام لسانى .

وكتمت الأمر عن الحاج أحمد وعن توفيق . لم أقل لأحد منهما شيئا مما أفعله بنفسى حتى إذا جاءت الإجازة الصيفية وبدأنا القراءة فوجئ كلاهما بشخص آخر منى لا يلحن مطلقا أو يكاد لا يلحن ، ودهش كلاهما وفرحا وأصبحا يستمعان إلى قراءتى للشعر فى استمتاع بعد أن كان المسكينان يعانيان ما يعانيان من كثرة اللحن منى ويتجاوزان عنه لمكانتى عندهما أو لمكانة أبى ... لا أدرى .

وكما يتضح الإصرار عندى فى موضوع النحو يتضح فى أمر آخر لى لست أنساه ما حييت . كنت طفلا فى الخامسة أو السادسة لا أذكر وكنت ألثغ فى الراء فلا أنطقها إلا مثل الياء أو قريبا من الياء ، وكنت ألعب الكرة فى فناء منزلنا بشارع الملك الناصر بالمنيرة حين أقبل عمى الكاتب الصحفى الأشهر فكرى أباظة الذى أصبح فكرى أباظة باشا فيما بعد وسارعت إليه أستقبله .

قال :

ــ أين أبوك ؟

قلت :

ــ هو نائم فوق .

قال :

ــ طيب تعال ... ما حكاية الراء هذه التى لا تريد أن تنطقها .

وفكرى أباظة ابن عم أبى ولكن الأمر بينهما كان أكبر من هذا بكثير فقد كان يحب أبى حبا عميقا . ولا أنسى يوم وفاة أبى وقد ارتمى عمى فكرى على أريكة بيتنا وراح ينشج بالبكاء . وكان يصرح دائما أنه أخذ أسلوبه الساحر من مقالات أبى التى كان يوقعها فى جريدة السياسة بتوقيع الغزالى أباظة . وأنا لم أر فى حياتى شخصا فى نقاء عمى

فكرى . وهل هناك أشد نقاء من رجل فى مثل مكانته وقمته الصحفية ينشر فى المصور أنه كان يصعد فى مصعد دار الهلال وجمع المصعد بينه وبين أحد محررى الدار وشابة جميلة وقال المحرر للفتاة : هذا أستاذنا فكرى باشا أباظة فقالت له الفتاة :

ــ هل أنت قريب لثروت أباظة ؟

رحم الله الرجل ، إننى أعتقد أنه ألف هذا الحوار ليقدم لى تحية على حساب نفسه ، وقد كان عمره كله يقدم الآخرين على تفسه فى كل شىء .

فى ذلك اليوم من طفولتى فى شارع الملك الناصر أخذنى عمى فكرى من يدى وصحبنى إلى مكتب أبى وقال : انطق ...

ــ ثروت .

فقلت :

ــ ثيوت .

فظل يعلمنى نطق الراء ثلاث ساعات متصلة لا يمل ويطلب إلى أن أضع طرف لسانى بسقف حلقى وأنطق حتى نطقت الراء .

و لم ينته أمرى مع الراء إلى هذا ، فقد كنت أعرف كيف أنطقها مفردة و لم أكن أعرف كيف أنطقها فى موضعها من الكلمة ، حتى أصبحت فى مطلع الشباب ووجدت الناس يسخرون من نطقى الناقص ويحاولون إخفاء سخريتهم . فقلت لنفسى ما دام فى الأمر سخرية فليسخروا منى وأنا أتدرب على النطق فكنت إذا أجبت التليفون وسألنى المتحدث من لا أخجل أن أقول .

ــ ثررررروت .

وتبين الراء وكأنها عشر راءات متصلة ويضحك المتحـدث ، فأقول في نفسي إنه أيضا كان سيضحك علنا أو خفاء إذا قلت ثيوت .

وكنت أظل أقول وأنا منفرد بنفسي « فرتر . فرتر » وأكررها حتـى استقام لسانة بعد بضعة أشهر وتخلصت من هـذا النقـص ، والفضـل أولا لغمى فكرى ... وأخيرا لإصرارى .

* * *

المدرســـة

كنا نقيم فى بيت كبير بشارع الملك الناصر رقم ٢٤ ، وكان البيت هو البيت الثانى لداخل الشارع من جهة شارع نوبار . أما البيت الأول فقد كان مدرسة أولية متسعة الأرجاء أصبحت الآن عمارة ضخمة . أما بيتنا فقد كان يطالعك منه أول ما يطالعك فناء متسع الأرجاء تحف به حديقة جميلة من الجانبين . والفضل فى جمال الحديقة يرجع إلى عناية عم أحمد بخيت بالحديقة وإشرافه الأمين الحاسم على الجناينى الذى كان يزورها عدة مرات فى الأسبوع على طريقة رعاة الجناين فى القاهرة . وبعد الحديقة يبقى لنا مكان كبير نلعب مختلف اللعب . ولو أننا كثيرا ما ننتقل إلى لعب الكرة فى الشارع وقد كان الشارع صغيرا ولكن المرور كان فى القاهرة جميعها خفيفا فقلما كنا نقطع اللعب فى الشارع لمرور سيارة أو عربة ذات خيل .

يحد حديقة البيت جدار من الناحية اليمنى يفصل بين البيت والمدرسة . وأما على الجانب الأيسر فسلاملك متصل بالبيت مباشرة فهو أشبه بجناح منه بسلاملك له سلم خاص . وكان أبى يستعمله عادة ليخلص منه إلى البيت ، أما أول باب فى الجناح فكان يفضى إلى حجرة تتوسط حجرتين الواقعة على يسار الداخل هى حجرة الاستقبال واليمنى هى حجرة مكتب أبى وكان كثير الاستعمال لها ، ولها باب يؤدى إلى الشرفة المتصلة بسلم الصعود ولها باب آخر يؤدى إلى صالة كبيرة كانت تستعمل حجرة طعام ، وحجرة الطعام فيها أبواب ثلاثة أخرى أحدها للقادم من شرفة السلم والثانى على يمين الداخل من الشرفة يؤدى إلى حجرة جلوس أخرى . أما الباب الثالث المواجه لباب الشرفة فيؤدى إلى

صالة أخرى بها باب غرفة فى أقصى يسارها كانت لا تخلو من ضيف يقيم فيها إقامة كاملة قد يكون أحد أقربائنا أو أحد المقربين لأبى من غزالة أو من غيرها . والعجيب أن بيتنا لم يخل قط من هذا النوع من الضيوف سواء كان هذا فى البيت أو فى بيتنا الآخر الذى انتقلنا إليه فى العباسية فى أول يناير سنة ١٩٣٩ . وفى وسط هذه الصالة باب آخر يؤدى إلى السلم الصاعد إلى أعلى و لم يكن سلما فخما وإنما كان من الحجر العادى .

وفى فناء البيت وفى مواجهة الداخل إليه بابان أحدهما كان يصل إلى سلم رخامى وهو المخصص للحريم وكانت والدتى وزائراتها يدخلن منه دائما . أما الباب الآخر فقد كان يؤدى إلى البدروم وكان متسع الأرجاء بصورة عجيبة حتى إن عمى محمود أخا أبى أقام فيه مصنع صابون جعل رائحته كلها تعبق بالصابون . وكان الخدم وعائلاتهم وأبناؤهم يقيمون جميعا فى هذا البدروم وكان به المطبخ أيضا.

حين ارتأى أبى أنه ينبغى لى أن أذهب إلى المدرسة اختار المدرسة الأولية الملاصقة لبيتنا . وفى أول يوم ذهبت إليها صحبنى محمد أبو عثمان وهو نوع عجيب من الخدم أطال اللّٰه عمره . فقد كان يقوم بكل الأعمال وكان فى نفس الوقت لا يعمل شيئا . كان يطبخ إذا غاب أخو زوجته محمد عبوه الطباخ والواو مشدودة فى تخفيف . وكان يسوق إذا غاب رجب السائق . وكان يساعد عم أحمد فى رى الحديقة وفى التخديم على الضيوف . وكان يذهب لشراء الأشياء . وكان يلاعبنى ويحكى لى الحكايات التى كنت مغرما بها غراما جائحا. وكنت حريصا ألا أفارقه من أجل هذه الحكايات . ولما رأت والدتى أننى أصبحت حجته التى يعتذر بها عن عدم العمل أحضرت من البلد إبراهيم ليرافقنى .

ولإبراهيم هذا قصة طويلة معى لم تنته بعد حتى اليوم . فهو الآن طباخ عندى يتقاضى مرتبه ولا يأتى إلا عندما يحلو له .

ذهبت إلى المدرسة فى أول يوم وأنا لا أدرى ماذا تخبئ لى المدرسة فقد كنت أظن أننى سأذهب إليها مع محمد أبو عثمان بعض الوقت ثم نعود سويا دون أن نفترق ، ولكننى فوجئت بمحمد يسلمنى الحقيبة عند باب المدرسة ويهم بالعودة إلى المنزل . وما إن استقر هذا فى نفسى حتى صرخت صرخة احتجاج عريضة مصرا أن يظل محمد معى . وأقبل المدرسون والناظر وواجهتهم المشكلة . وأمر الناظر مضطرا أن يدخل محمد معى إلى المدرسة ودخل المدرسة . وحين ذهبت إلى الفصل أصررت أن يصحبنى إليه . وصحبنى ولم أفهم شيئا من الدرس فقد كان نظرى كله منصبا على محمد الواقف على باب الفصل داخل الفصل .

قبل الناظر هذا الاستثناء يوما ويوما ثم أمر محمدا أن ينصرف وبكيت وصرخت فلم يأبه أحد ببكائى ، ورأيت آخر الأمر أن أرضخ للأمر الواقع . وخفف الوحدة علىّ أن أبى ووالدتى كانا يطلان على من حجرة الطعام بالدور الأعلى ويلوحان لى فرحين أننى أصبحت تلميذا فى المدرسة .

أذكر أننى لم أستمر طويلا بهذه المدرسة فنقلت إلى مدرسة المنيرة بروضة الأطفال بها ، وفى هذه المدرسة بدأت مشوار الدراسة الذى سار فيه من قبلى وتسير فيه البشرية حتى الآن والذى أحسب أنها لن تنتهى من السير فيه .

وربما كان الطريف أننى منذ سنوات قريبة دعيت من ناظر أحد المدارس الابتدائية لأجلس فى ندوة مع التلاميذ . وذهبت إلى المدرسة فى

العنوان الذى أنبئت به . وكم فوجئت وكم فرحت حين وجدت نفسى ضيف ندوة فى المدرسة التى كنت تلميذا فيها بروضة الأطفال .

لم أعد فى حاجة لإبراهيم الذى جاء من غزالة لصحبتى فدخل هو إلى المطبخ ليتعلم الطهى . ولكنه لم ينس أنه جاء من أجلى . فكان يلازمنى بعد انتهاء عمله هو فى المطبخ وعملى أنا فى المدرسة .

وعرف الطريق إلى سينما الأهلى وعرفت الحلقات التى كانت تقدمها السينما لتومكس وإخوانه من رعاة البقر وهمس فى أذنى أن نذهب معا أثناء نومى أبى . وكان أبى يرغبنى أن أنام معه فى القيلولة فكنت دائما أتسحب وأنزل إلى الملعب ويعلم اللّه أنه كان يحس بى ويتظاهر بالنوم . وقد أورثنى هذا كرهى لنومة القيلولة حتى أرغمتنى عليها السنون فأصبحت أدمنها بعد كراهية ، ولا أتحمل العمل بعد الظهر إلا إذا أخذت نصيبا مهما يكن ضئيلا من النوم .

ذهبت مع إبراهيم إلى سينما الأهلى ولكن كان العائق الأكبر يتمثل فى حصولى على قرش صاغ ثمن التذكرة الثانية فى الدرجة الثالثة فى الصالة . فقد كان مصروفى قرشا فى اليوم ، وكنت فى سائر أيام الأسبوع أنفقه فى كنتين المدرسة أو فى أى مصروف آخر . أما فى يوم الخميس فقد كنت أبقى على القرش لا أنفق منه مليما ثم أروح أفكر فى الوسيلة التى استنبت بها قرشا آخر لنشترى التذكرتين ، ولم يكن الأمر يسيرا ولكننى كنت أوفق دائما وأحصل على القرش .

أفادتنى دراستى مع الحاج أحمد القرعيش فى مدرسة الروضة حتى رأت المدرسة فى آخر العام أن تنقلنى إلى السنة الثالثة مباشرة دون أن أمر بالسنة الثانية .

وذهبت بعد ذلك إلى مدرسة المنيرة الابتدائية وكان ناظرها فهمى بك الكيلانى وكان من أعظم الناس الذين عرفتهم . وبدأت فى هذه السن هوايتى لقراءة القصص . وكانت هناك مجموعات من قصص الأطفال مثل قصتى وغيرها . ولكن حدث فى هذه السنوات أن بدأ الأستاذ كامل كيلانى يكتب مكتبته للأطفال وكان صديقا مقربا إلى أبى غاية القرب ، وقد كان من كبار أدباء عصره وكان من أحفظ الناس للشعر القديم كله منذ الجاهلية إلى العصر الحديث .

وبدأ يهدى إلى أبى كتبه ولم يكن يعطيه كتابا واحدا أو اثنين وإنما كان يهديه عدة كتب قد تصل إلى ثمانية أو عشرة ، وكنت أدخل إلى حجرتى وأغلق الباب بالمفتاح ولا أخرج حتى أنتهى من كل الكتب التى أهداها الأستاذ الكيلانى إلى أبى . ومن هذه الكتب عرفت حكايات ألف ليلة وليلة كلها ، وعرفت روايات شكسبير مبسطة ، وعرفت روبنصن كروزو وحى بن يقظان . وحين كنت فى العاشرة كنت أقرأ توفيق الحكيم وطه حسين والمازنى ووجدت نفسى بعد ذلك أقرأ الأدب الكبير كله فى سهولة لا مثيل لها .

وكان أبى معجبا بشوقى غاية الإعجاب فقرأت رواياته . وأذكر أننى وأنا أنتظر نتيجة الشهادة الابتدائية قرأت مجنون ليلى ثلاث عشرة مرة متتالية .

وكنت سريع الحفظ لدرجة أنه حدث مرة وأنا فى السنة الثانية الابتدائية أن كتب أستاذنا الفاضل العظيم الوقور محمود الشيبانى قصيدة من عشرة أبيات على السبورة والتفت إلينا وسأل :

ـ من يقرأ هذه الأبيات ؟

فرفعت أصبعى فأشار إلى أن أقف لأقرأ الأبيات . فإذا بى أستدير إلى الحائط وأولى السبورة ظهرى وألقى الأبيات جميعا ، وإذا بالفصل يصفق دون أن يأمره بذلك الأستاذ الشيبانى . وحين انتهى التصفيق قال الأستاذ الشيبانى :

ــ ماذا أقول لك يا بنى .. ابن الوز عوام .

وقد فعلت ما فعلت وأنا أحسب أننى أصنع شيئا طبيعيا لا غرابة فيه، حتى لقد فوجئت بتصفيق الفصل وإعجاب الأستاذ وقد كان مطلع هذه القصيدة :

انظر لتلك الشجرة　　ذات الغصون النضرة

وأذكر أن أبى فى هذه الأيام كان دائم الاجتماعات فى مكتبه بالبيت بأشخاص لا أعرفهم ، وإنما عرفت أنهم يعدّون لإقامة ذكرى وفاة حافظ إبراهيم ، وعرفت أن الاحتفال بهذه الذكرى سيستمر لمدة ثلاثة أيام بدار الأوبرا المصرية . وحدث أن دخلت إلى مكتب أبى وهو فى اجتماع من هذه الاجتماعات فقال لى مداعبا :

ــ أنشد لنا شيئا من محفوظاتك فى المدرسة .

فأنشدت هذه القصيدة وما أن فرغت منها حتى قال أحد الجالسين :

ــ رفع اللّه رأسك يا بنى كما رفعت رأسى ، وإذا به الأستاذ محمد الهراوى مؤلف القصيدة .

وأذكر أننى حضرت الحفلات الثلاث التى أقيمت بدار الأوبرا ، وما زلت أذكر المازنى وهو يترك المنبر إلى مقدمة المسرح ويقول : « أشهد اللّه والحق أننى والعقاد قد حاولنا أن نهدم شوقى وحافظ لننال منهما ولنقف على أنقاضهما فلم ننل إلا من الحق ومن أنفسنا » .

وفى نهاية الأيام الثلاثة كان محمد محمود باشا حاضرا فى المقصورة التالية لمقصورة الملك بدار الأوبرا ، وما أن انتهت الحفلة حتى قامت مظاهرة ضخمة تهتف باسم محمد محمود باشا وترفعه إلى الأعناق ، وكان رئيس الوزارة فى ذلك الحين هو النحاس باشا .

وقد أدركت بعد ذلك أن هذه المظاهرة كانت جزءا من تدبير سياسى محكم أدى إلى سقوط وزارة النحاس باشا وتولى محمد باشا محمود رياسة الوزارة ، وكانت أول وزارة تشترك فيها الهيئة السعدية برئاسة أحمد ماهر باشا . ومع أن أبى كان سكرتير عام حزب الأحرار الدستوريين إلا أنه لم يشترك فى الوزارة عند تأليفها ، وقد حدث أمر يستحق أن يروى فى أثناء وجود هذه الوزارة فقد تولى أبى تنظيم الترشيحات لمجلس النواب بوصفه سكرتير عام الحزب الحاكم ، فكان ينسق بين الأحرار الدستوريين وبين السعديين . وحدث أن طلبه حسن صبرى باشا وكان فى ذلك الحين وزيرا فى الوزارة ومقربا جدا عند الإنجليز ، وطلب حسن صبرى من أبى أن يرشح اسما ذكره فى إحدى الدوائر ولكن أبى اعتذر عن عدم ترشيحه لأن الدائرة التى ذكرها حسن صبرى كان مرشحا بها أحد السعديين وكان متقدما إليها حر دستورى من تلقاء نفسه فوضعها لا يسمح بأن ترشح فيها الوزارة أحدا فإذا حسن صبرى يقول لأبى :

ـ أتناقشنى ؟

فكان من الطبيعى أن يضع أبى سماعة التليفون فى وجهه وينهى المكالمة .

وحدث بعد ذلك أن خلا منصب وزير الزراعة وكان مجلس الوزراء مجتمعا برئاسة محمد محمود فإذا به ينظر إلى ساعته ويقول للوزراء :

سأضطر أن أنهى الجلسة لأنى على موعد مع الملك لأوقع مرسوم وزير الزراعة .

وسأله الوزراء عمن اختاره للوزارة فقال لهم :

ــ لقد اخترت للوزارة جوهرة فريدة .

قالوا :

ــ من ؟

قال :

ــ دسوقى أباظة .

فرحبوا جميعا وإذا حسن صبرى يقول :

ــ إذا دخل شوقى أباظة الوزارة من هذا الباب سأخرج أنا من هذا الباب .

ولم يدخل أبى الوزارة مع محمد محمود قط .

ولم يكن عجيبا ألا يختار حسن صبرى أبى للوزارة ولكن العجيب أن أبى ظل طوال فترة وزارة حسن صبرى يمتدح حسن صبرى لنا نحن أبناءه وأهل بيته ولم يعارضه قط فى البرلمان . فأنا لم أر فى حياتى شخصا يفصل بين المشاعر الشخصية والرأى والمصلحة العامة مثل أبى . وتشاء الأيام أن يجنى حسن صبرى باشا على أبى حيا وميتا . فقد حدث أن رشح حزب الأحرار أبى لرئاسة مجلس النواب عن الأحرار الدستوريين فى حين رشحت الهيئة السعدية أحمد باشا ماهر . وكان الحزبان قد اختلفا وخرجت الهيئة السعدية من الوزارة ولم يحل مجلس النواب مع ذلك . وكان الخلاف بين الحزبين سببه ما ارتآه أحمد باشا ماهر فى ذلك الوقت من وجوب دخول مصر الحرب فى ذلك الحين حتى يكون ذلك مبررا لها أن تطالب بالاستقلال بعد نهاية الحرب . ورأى حزب الأحرار

ـ وكان محقا يومذاك ـ أن النصر ليس مؤكدا للحلفاء وأنه يجب أن تجنب الحكومة مصر ويلات الحرب وخاصة أن الإنجليز لا أمان لهم وليس من الحتم أن يستجيبوا لمطالب مصر حتى إذا انتصروا وكان هذا الاختلاف فى عام ١٩٤١ . وكان من المرجح جدا أن يتغلب أبى على أحمد ماهر باشا فى معركة رئاسة مجلس النواب ولهذا لم ندهش كثيرا حين كنا جالسين فى حجرة مكتب أبى بالعباسية وإذا بنا نجد الباب يفتح فجأة ونرى شخصا أنيقا واقفا فى لحظة وسط الحجرة وكأنه نبت من الأرض وهو يقول بصوت جهورى غاية فى الأدب :

ـ دولة رئيس الوزراء .

وكانت سرعة ميشيل سويرس تشريفاتى رئيس الوزراء لم تتح لأحد منا أن يقف ليرحب به فكنا جميعا جلوسا وظللنا جلوسا نستوعب المفاجأة ، إلا أبى الذى مرن على هذه المواقف لطول ممارسته لها فقد قام من فوره وقصد إلى البهو الخارجى واستقبل حسن باشا صبرى وسمعنا أبى يقول :

ـ أهلا دولة الرئيس .

وسمعنا أيضا حسن باشا صبرى يقول :

ـ أهلا برئيسنا العظيم .

ودخلا معا إلى حجرة الاستقبال الكبيرة الملاصقة لحجرة المكتب ، وفرغنا نحن إلى ميشيل سويرس نرحب به ولم يكن أحد من الجالسين يعرفه .

كانت هذه الزيارة فى الليلة السابقة مباشرة على انتخابات الرئاسة فى مجلس النواب . ولكن الأقدار لم تشأ لهذه الانتخابات أن تتم فى موعدها لسبب لم يحدث فى تاريخ مصر . فقد شاء الله فى علياء سمائه

أن يختار عبده حسن صبرى رئيس مجلس وزراء مصر وهو يلقى خطبة العرش التى تسبق الانتخابات ويؤلف الوزارة حسين سرى وكان رشوان محفوظ وهو من كبار أعيان الصعيد ومن الوزراء السابقين للأحرار الدستوريين يطمع أن يدخل الوزارة ولكن حسين سرى . لم يختره فإذا به يغضب من الحزب وينسلخ مع خمسة عشر عضوا عن انتخاب مرشح الحزب فى رئاسة المجلس مع حبه الصادق لأبى ، وهكذا لا يصل أبى إلى رئاسة مجلس النواب بسبب حسن صبرى وإن كان فى هذه المرة سببا صنعته السماء لحكمة يعلمها الواحد العليم وكان حسن صبرى أداة لا اختيار لها .

وفى تعديل وزارى أصبح أبى وزيرا لوزارة الشئون الاجتماعية فى وزارة حسين سرى وكان هذا فى ٢٦ يوليه عام ١٩٤١ .

ومن الطريف الذى أذكره فى هذه الأيام أن النادى الأهلى بالزقازيق أعلن أنه سيقيم حفل تكريم لأبى بمناسبة توليه الوزارة . وقبيل اليوم المحدد للتكريم استقالت الوزارة ولم يكن قد مر على تولى أبى منصبه شهر واحد ، ولكن حدث أن سعى الساعون لإعادة التفاهم بين حزب الأحرار الدستوريين والحزب السعدى ونجح المسعى وكان لا بد أن يشترك الحزب السعدى فى الوزارة . وكان الأحرار الدستوريون ممثلين فى الوزارة بسبعة وزراء كان لابد أن يصبحوا أربعة ليجد السعديون وزارات لممثليهم فى الوزارة ، وظلت الوزارة تؤلف إلى اليوم المحدد لإقامة حفلة التكريم فى الزقازيق .

ولم يذهب أبى إلى حفلة التكريم وكيف كان يمكن أن يذهب وهو لا يعرف إن كان سيظل وزيرا أم سيخرج مع الخارجين .

و لم أذهب أنا أيضا إلى الحفلة طبعا . وذهبت إلى كازينو أوبرا وأذكر أننى طلبت جيلاتى وأصابنى بتسمم .

وقبل أن تبدأ بوادر التسمم كان أبى نائما ودق جرس التليفون بالدور الأعلى من منزلنا وأجبت أنا وطالع أذنى صوت جاد :

ـ معالى الوزير موجود ؟

قلت :

ـ هو نائم من يريده ؟

قال :

ـ أدخل له التليفون إذا سمحت .. دولة رئيس الوزراء يريده .

وعاد أبى إلى الوزارة ولكنه لم يحضر حفل التكريم الذى أقيم له فى الزقازيق فقد أبى المحتفلون إلا أن يستمروا فى التكريم بقى أبى فى الوزارة أم لم .

هذه الوزارة بقيت حتى وقعت أحداث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ . وبطبيعة الحال كان أبى على علم بكل ما وقع فى ذلك اليوم المشئوم ، وفى يوم ٥ فبراير كنت أركب مع أبى سيارته الخاصة بعد أن صرف سيارة الوزارة و لم تكن آثار ٤ فبراير قد ظهرت بعد ولا يعرف أحد أى أثر سيكون لها على الشعب والرأى العام كما أن أحدا بطبيعة الحال ـ لم يكن يدرى بماذا سيدافع النحاس باشا عن هذا الذى حدث . وعن تلك الوصمة العريضة فى جبين الوفد الذى اكتسب اسمه لمعارضة الإنجليز وإخراجهم من مصر .

وكنت فى سنى الخضراء فى ذلك الوقت أتصور أن الدفاع مستحيل وأن النحاس باشا وأنصاره لن يجدوا ما يقولونه لتبرير خيانتهم لثقة الشعب ، وسألت أبى فى سذاجة :

ـ ماذا سيقول النحاس باشا للشعب ؟

وفى عبقرية السياسى المحنك الخبير بأخلاق الوفد وخداعه للحق .

قال أبى دون ريث تفكير :

ـ سيقول أنقذنا العرش وحمينا البلاد من الفتنة وحافظنا على سيادة الوطن وكرامته .

وكأنما كان النحاس باشا معنا فى السيارة فقد فوجئت بأحاديثه لا تخرج عما قاله أبى فى شىء ، وفوجئت بأنصاره يصدقونه وذهلت لهم وهم يرفعون مايلز لمبسون السفير البريطانى بطل الاعتداء المشين على أكتافهم يهتفون له ويهللون ويصرخون بحياته .

... لقد كانوا يهتفون لمن أتاح لهم الحكم يستغلونه ويمرحون فى هناءته ومكاسبه ولتذهب مصر وليذهب رمز مصر ولتذهب كرامتها إلى أى جحيم تشاء .

وفى ظل هذا الحكم بدأ النحاس باشا اعتقالاته ، وحدثت الفرقة والخصومة بينه وبين مكرم باشا عبيد ، وظهر الكتاب الأسود وكانت عندنا منه كميات كبيرة . وقدم أبى فى مجلس النواب استجوابا عن الاعتقالات . وأعتقد أن دخول أبى إلى المجلس قصة لا بد أن تروى . فقد قرر حزب الأحرار أن ينتدب أبى وأحمد باشا عبد الغفار لمفاوضة النحاس باشا وليتعرفا منه كيف ستدار الانتخابات وذهبا إليه فقال لهما :

ـ للحزب أن يدخل إلى الانتخابات ولكن يمنع المرشحون من الكلام عن حادثة ٤ فبراير كما يمنعون من مهاجمة الإنجليز كما يمنعون من مهاجمة السيدة حرمى . ولهم بعد ذلك أن يقولوا ما يشاءون فى دعايتهم الانتخابية .

وإذا بأحمد باشا عبد الغفار يصيح برئيس الوزارة :

— ماذا يمكن أن نقول لمرشح الوفد بعد ذلك ؟ أنقول له وشى أحلى من وشك أم نقول له أبويا أحسن من أبوك .

وانصرف أبى وأحمد باشا وسمعنا أن النحاس باشا قص على الهيئة الوفدية أمر هذا اللقاء قائلا لهم :

— جاءنى معالى الأستاذ إبراهيم دسوقى أباظة والولد أحمد عبد الغفار .

وكان أبى فى ذلك الحين لا يحمل رتبة الباشوية بينما كان أحمد باشا يحمل الرتبة ولكن النحاس باشا استبدل بها لقب ولد .

امتنع الحزب عن دخول الانتخابات وارتأى أبى بإنفاق مع الحزب أن يرشح فى دائرته عمى عبد اللّه فكرى أباظة الذى كان سكرتيرا عاما لوزارة التجارة فى ذلك الحين ثم وكيلا . ودخل عمى الانتخابات مستقلا ونجح وكان الدستور ينص على أن النائب الموظف عليه أن يختار بين الوظيفة والنيابة فى مدة أقصاها ثلاثة شهور . واختار عمى عبد اللّه الوظيفة فى المدة المحددة . وأعلن عن خلو الدائرة وتقدم أبى للترشيح ورشح الوفد مرشحه الذى كان يرشحه دائما فى دائرتنا . وكانت الانتخابات معركة حربية طاحنة صنع فيها الوفد كل ما يستطيع لإسقاط أبى حتى إذا يئس فكر أن يستولى على الصناديق ويغيرها فإذا بشباب الأسرة الأباظية يبيتون فوق الصناديق وعلى رءوسهم السلاح . وقضى عمى عبد اللّه فكرى ليلته فى بيت ملاصق لمقر الفرز ومن أحداث هذه الانتخابات ضرب فكرى أباظة باشا الكاتب الأشهر وفتحت يده بجرح كبير ظلت آثاره باقية حتى اختاره اللّه إلى جواره .

ونجح أبى فى الانتخابات وتقدم باستجواب عن المعتقلات . وفى يوم نظر الاستجواب اعتقلت حكومة النحاس باشا مكرم باشا عبيد .

ووقف أبى فى المجلس وقال إن الحكومة تتحدى الشعب ومجلس النواب وتعتقل مكرم باشا فى نفس اليوم المحدد لنظر الاستجواب الخاص بالمعتقلات ، وأنا أعلن هنا أننا متضامنون مع مكرم باشا فى كل ما فعل أو قال ، وللحكومة أن تعتقلنا نحن أيضا لأننا شركاء مع مكرم ولتفعل بنا القوة الغاشمة ما تشاء .

وأذكر أننى فى ذلك اليوم كنت فى البيت أتلقى درسا خاصا فى اللغة الإنجليزية على يد أستاذى الذى كان متوليا الإشراف على دراستى فى كل العلوم الأستاذ لويس مرقص الذى أصبح فيما بعد الدكتور لويس مرقص وأصبح رئيس قسم اللغة الإنجليزية فى الجامعة . ودخل أبى إلينا وروى لنا ما كان من أمر جلسة مجلس النواب . ثم نادى أحمد بخيت وأمره أن ينقل نسخ الكتاب الأسود والمنشورات الأخرى إلى بيت ابن عمه الأصغر الضابط عمر أباظة ويتركها عند السيدة الجليلة والدته وكان مجاورا لبيتنا فى العباسية . ونفذ أحمد بخيت الأمر بحذافيره ولم يبق فى بيتنا ورقة يمكن أن يجعلوا منها حجة ولو واهية للقبض على أبى .

وحدث ما توقعه أبى وتم تفتيش بيتنا بعد الساعة الثانية صباحا من نفس اليوم ، ولم يتركوا ركنا إلا أعملوا فيه أيديهم حتى حقيبة أختى الصغرى التى أصبحت جدة الآن فتشوها . واستيقظت الطفلة التى لم تكن تتجاوز الخامسة من عمرها ولكن العجيب أن أختى حين استيقظت ورأتهم يعبثون بحقيبتها نظرت إلى أبى وراحت تقهقه بالضحك وتقول لأبى :

ــ بابا دول بيفتشوا شنطتى ... بص !

وضحك أبى وسرى عنه .

ولكن ينبغى لى أن أشهد أن أبى قال لرئيس حملة التفتيش فى حسم : لكم أن تفتشوا ما تشاءون ولكنكم لن تدخلوا الحجرة التى بها السيدات فى البيت . فإذا فرغتم من تفتيش حجرة انتقل إليها السيدات وتقومون أنتم بتفتيش الحجرة التى كن يشغلنها . وقبل الضابط رئيس الحملة حفاظا على كرامة البيت . فإذا قارنا هذا بما كان يجرى بعد ذلك من اعتداء على الحرمات لوجدنا أن حكم الطغاة فى العهد الديمقراطى لم يتخل عن إنسانيته وعن تقديره لكرامة البيوت .

* * *

أبـــى وأمـــى

كان أبى فى البيت ملاكا ولكن كانت له هيبة تغنيه عن أى عنـف . ضربنى أبى ثلاث مرات لم يزد الضرب فى اثنتين منهـا عـن صفعـة علـى وجهى ، أما المرة الثالثة فلا بد أن أرويها لأننى مظلوم فيهـا ظلمـا بينـا . والعجيب أننى لم أقل لأبى حتى بعد أن كبرت وتخرجت وتزوجـت فـى حياتـه رحمـه اللّـه أننـى مظلـوم ، ولعلـى خشيت أن اتسـرب إلى نفسـه بإحساس من الأسف أكبرتـه أن يشـعر بـه . وهـأنذا أروى اليوم ظلمـى وهو سيطلع عليه وهو فى أكرم جوار . وأنى أشفع قصتى قبل أن أرويها بأن أنبئه وهو فى عليين أن إنسانا ما فـى العـالم أو فـى التـاريخ لم يسـعد بظلمه سعادتى بالظلم الذى وقع علىّ أنا منك يا أبـى فـى ذلـك اليـوم . فقد أشاع هذا الذى وقع لى فـى نفسـى فيضـا لا ينتهـى مـن الإحسـاس بالرحمة وحب الناس . وأنا أعلم أن أبى أحبنـى كمـا لم يحب أب ابنـا ، فقد ولدت له وهو فى الأربعينات من عمره ، ومرضـت فـى أول أيـامى فى الحياة فجعلته شفقته على وإشفاقه أن أموت يزداد حبا لى . ومع هـذا وقع منه هذا الظلم الحبيب على ابنه المقرب .

ربما كنت أنا أحب أبى كما لم يحب ابن أباه ، ولست أنسـى كلمـة أهدى بها عمى عبد اللّه صورة لـه إلى أبـى قـال فيهـا : إلى أبـى وأخـى وأستاذى ومثلى الأعلى . فإن كان هو هكـذا بالنسـبة لأخيـه فقـد كـان بالنسبة لى هذا جميعا ثم هو منى حيـاتى ومصدرهـا وسياجها وعزهـا ، وكان حتى بعد موته ملاذى ومأمنى ومفزعى وأملى .

كنت ألعب مع خادمة عندنـا اسمهـا أمينـة وكنـت فـى السـابعة مـن عمرى ، وكانت هى فى مثل سنى وكانت تجرى وأجرى وراءها وحمـى

الوطيس وازداد الجرى وأرادت أمينة أن تهرب منى فدخلت تحت أحد الأسرَّة . وكانت أمينة سوداء فطساء الأنف ولم يكن الهواء تحت السرير كافيا فأغمى عليها من قلة الهواء ، وحين دخلت وراءها وجدتها لا تنطق فجريت أنادى أم عبده مدبرة المنزل فأسرعت إليها ومعها خدم آخرون وأخرجوها من تحت السرير وأحضروا لها نشادر فأفاقت ، ولم يزد إغماؤها عن دقيقة أو اثنتين ، وذهبت أم عبده رحمها اللّه وغفر لها فقالت لأبى إننى ضربت أمينة حتى أغمى عليها . وأخبرتنى والدتى أن أبى غاضب علىَّ كل الغضب فحرصت ألا ألقاه . وكنت أجلس وحدى منزويا فى كرسى كبير واسع لم أشهد له مثيلا من قبل أو من بعد . وإذا أبى يدخل إلىّ وفى يده سوط ووقف على رأسى وقد أذهلنى الخوف أن أقف وقال أبى :

ـ لقد ضربت البنت حتى أغمى عليها وأنا سأضربك حتى يغمى عليك .

وبدأ يضرب بغير توقف وبكل العنف الذى لم أعرفه فيه من قبل أو من بعد . ولم يغم علىَّ وكنت من السذاجة بحيث لم أفكر أن أدعى الإغماء . وما زلت على هذه السذاجة حتى الآن ، فأنا لا أعرف حتى اليوم كيف أتظاهر بما ليس فىّ . وضرب أبى وضرب حتى مل ورمى السوط وانصرف .

وظلت آثار الضرب على ظهرى فترة طويلة لا أذكرها ولكنها باليقين لم تكن قصيرة . شهد اللّه ما ضربت أمينة .

ويشهد اللّه أننى ما ضربت خادما بعد ذلك قط . فقد علمت من هذا الذى أنزله بى أبى أن هؤلاء الخدم إنما هم إخواننا لهم علينا من الحقوق ما لإخواننا وأبنائنا . وعلمت مما صنع أبى أننا مطالبون بالمحافظة

على أجسادهم بل وكرامتهم وإنسانيتهم بنفس القدر الذى نحن مطالبون به إزاء أنفسنا وأبنائنا وأخواتنا . رحمك اللّه يا أبى العظيم فإنك حتى حين ظلمتنى أنصفتنى وعلمتنى ما لم أكن لأتعلمه لولا ظلمك الرؤوف الشفيق الحنون .

كان أبى يحب أبناءه جميعا بعدل مذهل وهبة اللّه له . وكنا نحن ولديه أنا وشامل نحس أنه يحبنا ولكنه يحرص أن يستر حبه الذى قد يجعلنا نعتمد على مجده ولا نقيم من نفسينا رجلين يحرصان على أن يكون كل منهما شخصا ذا قيمة بذاته هو لا بذات أبيه . وكان فى نفس الوقت لا يرد لنا مطلبا ولا يحجب عنا عطفه . حين حصلت على الثانوية العامة رغب إليه أن يشترى لى سيارة محتجا ببعد المسافة بين العباسية وجامعة فؤاد ـ القاهرة الآن ـ بالجيزة . فكان أن كلف بذلك مدير مكتبه وكان فى ذلك الحين حسين بك صادق والد الفتاة التى أصبحت فيما بعد الملكة ناريمان . وجاءت السيارة وفى غمرة الفرحة بها وفى الأيام الأولى لها خرجنا أنا وأخى شامل بالسيارة وذهبنا إلى طريق الهرم وقمنا بنزهة طويلة فخورين أن لنا سيارة خاصة بنا وإن كانت أصغر سيارة يمكن أن تشترى ولكنها سيارتنا . وذهبنا أنا وشامل إلى السينما وعدنا والساعة تقارب الثانية عشرة فإذا بأضواء بيتنا كلها منيرة فى جميع أدواره ونظرنا إلى نافذة غرفة أبى فوجدناها أيضا مضيئة . وتخطفنا الخدم من كل حدب وصوب : كلما الباشا .. الباشا منتظر .. الباشا يريدكما . فقلت لشامل : اذهب أنت إلى حجرتك فأنا المسئول واللّه المستعان .

بلغت بابه وأحس بخطواتى أمام الحجرة فلم ينتظر حتى أفتح الباب وإنما فتحه هو وأطل برأسه وقال فى حسم : السيارة ستباع بكره ،

وأقفل الباب رافضا أن أجعل من الأمر موضوع نقاش فهو حتى لم يسأل أين كنتما .

ذهبت إلى والدتى هالعا . فأنا لم أفرح بعد بالسيارة وقالت لقد سأل عنكما عندما جاء وحين عرف أنكما لم ترجعا لم يغير ملابسه كما تعود أن يفعل ، وتناول عشاءه وقد كان عشاء خفيفا لا يزيد عن الزبادى والفاكهة ، وسمع الأخبار دون أن يخلع ملابسه أيضا وظل ينتظركما بكامل ملابسه . وقد كانت عادته أن يسمع أخبار الحادية عشرة وينام . حتى إذا سمع صوت السيارة هب من فوره فلبس جلبابه حريصا ألا نحس أنا وشامل أنه مشغول علينا وأنه غير عادته من أجلنا . وكان فعلا بالجلباب حين أطل علىّ من فتحة الباب . ولكن لم يكن قد أكمل إغلاق أزراره .

ومكثت فى غرفة والدتى أرجوها أن تتشفع لى عنده ، وهى سعيدة أننا عدنا وحريصة فى نفس الوقت أن تبقى على الخوف فى نفسى حتى الصباح فلا أعود إلى مثل ما فعلت مرة أخرى . وقضيت ليلتى أكتب قصيدة أعتذر فيها عما فعلت وأرجوه أن يبقى على السيارة ، وقد نشرت هذه القصيدة فى مجلة الصباح فى هذه الأيام وأذكر آخر بيت فيها :

وما أظنك ترضى   بأن أكون بياده

وبقيت السيارة لا أدرى هل من أجل شفاعة والدتى أم شفقة على أم من أجل القصيدة أم من أجل كل هذا مجتمعا . والعجيب أننى نسيت هذه الواقعة التى حدثت عام ٤٦ حتى ذهبت إلى الدوحة عاصمة قطر فى أوائل السبعينيات ، وبينما يجرى معى المذيع حديثا فى الراديو فإذا به

يفاجئنى بحكاية السيارة كاملة وبالأبيات التى نشرت بمجلة الصباح والتى كنت نسيت أمرها تماما .

وهكذا كان أبى فى معاملتى لى أنا وشامل ، أما إذا عامل أختى فالأمر مختلف كل الاختلاف فهو يفيض عليها ألوانا من الحب الذى لا يحاول أن يتخفى ولا يستتر .

أما والدتى فقد كانت تفيض عن نهر متدفق من الحنان والرحمة والحب ، ولكنها مع ذلك كانت تعرف متى تغضب ومتى تعاقب . تذكر لها سيدة جليلة من قريباتنا أنها دخلت يوما إلى منزلنا فرأتنى واقفا أمام مرآة أرجل شعرى ومن خلفى أمى كلما رجلت أنا شعرى نكشته هى وأنا أصر على الترجيل وهى تصر على النكش . فقد كانت تأبى لى منذ الطفولة أن يكون اعتزازى بشعر مرجل .

وأذكر أنا أننى كنت فى الابتدائية وكان الامتحان قد اقترب ، ودخلت أمى إلى حجرة نومى فوجدتنى أقرأ فى كتب غير كتب المدرسة فثارت على ثورة جامحة ، وكنت واثقا من مكانتى عندها فرأيت أن أهددها بهذه المكانة فإذا أنا أصيح : والله العظيم أنتحر ..

فإذا هذه الأم التى تعبد أولادها بعد الله والتى لم تتجاوز فى تعليمها مرحلة القراءة والكتابة تذهب إلى الشباك فى خطى واثقة ثابتة جليلة وتفتح الشباك وهى تقول فى حسم : تفضل انتحر .

وانكسرت حدتى وعلمت منذ ذلك اليوم أن الموت قد يصب الذعر فى نفس الأم إذا اقترب من ابنها ، ولكن الخيبة أيضا تفعل الأمر نفسه .

كان أبى وأمى فى طليعة الجيل الذى كان ينادى كل منهما الآخر باسمه مجردا . وقد يدهش القارئ من هذا الذى أقول وربما تزول هذه الدهشة إذا علم أن الجيل السابق لهما وكثيرا من جيلهما كان الزوجان

من أبنائه يتناديان بالألقاب فتقول الست فلان باشا أو فلان بك ويقول الرجل يا هانم أو يا فلانة هانم ، وهذا ما لم نشهده نحن فى بيتنا وإنما شهدته في بيوت بعض أقاربنا ممن هم فى جيل أبى وأمي .

كان أبى متحضرا فى ثقافته تحضرا لا أراه فى كثير ممن يعيشون معنا الآن . كان أبى مثلا يعجب بالكتاب الروائيين و كتاب المسرح إعجابا لا حدود له . وربما يرجع ذلك إلى ثقافته الفرنسية الواسعة وإلى حبه للغة الفرنسية وإجادتها إجادة المثقفين من أبنائها . وإنى أرى كثيرا من الأدباء المعاصرين وخاصة من الشعراء لا يعتبرون الرواية أو القصة أدبا على الإطلاق . ويكثر هؤلاء بصورة واضحة فى الشعراء العرب خاصة .

وقد شعرت فى أسفارى فى البلاد العربية أننى لو لم أكن من كتاب المقال الأدبى والسياسى ما وضعنى هؤلاء الشعراء فى عداد الأدباء أو الكتاب .

ومن مظاهر الحضارة المذهلة فى خلق أبى أننى حين كنت فى السابعة من عمرى وكنت فى السنة الأولى الابتدائية بمدرسة المنيرة أعجبت بالموسيقى ، وكان بالمدرسة فرقة موسيقى يشرف عليها عازف الكمان الشهير إسماعيل العقاد . وانضممت أنا إلى هذه الفرقة وطلبت من أبى أن يشترى لى آلة كمان لأعزف عليها . ففرح لمطلبى فرحا بالغا وسارع بشراء الكمان وكان ثمنها فى ذلك الحين خمسة جنيهات . وناهيك بخمسة جنيهات فى سنوات الأزمة الطاحنة . إلا أننى للأسف أخلفت ظنه و لم أفلح فى العزف على الكمان و لم أتجاوز فى هذا الفن عزف السلم الموسيقى .

* * *

إن ذكرياتى فى بيت شارع الملك الناصر تتثال على ذهنى فما أدرى أيها أترك وأيها أثبت مع أننى تركت هذا البيت وأنا أخطو إلى الثانية عشرة من عمرى .

لا أستطيع أن أنسى مثلا أن محمد باشا محمود زعيم حزب الأحرار الدستوريين وابن الرجل الذى عرض عليه المُلك فأبى كان يزور أبى كثيرا فى هذا البيت ، وكان أحيانا يأتى وأبى فى الدور الأعلى لم يكمل ارتداء ملابسه فكان يأمرنى أن أذهب فأجالس محمد باشا محمود حتى ينزل هو ولم أكن أجد فى هذا الأمر غرابة . ولم أتبين هول الموقف الذى كنت أتعرض له إلا حين بلغت السن التى تمكنى من معرفة قدر الرجل الذى كنت أرسل لمجالسته .

وأذكر أن محمد باشا جاء يوما يسأل عن أبى وكنت ألعب فى فناء البيت ، وحين رأيت سيارته تقف بباب بالمنزل ، قصدت إليه وكأننى أقصد إلى صديق مثلى وسألنى عن أبى ولم يكن بالمنزل فجاذبنى الحديث فأخبرته أننى طلبت من أبى كرة فأبى أن يشتريها لى وقد رويت له ما رويت وكأنه ترب من أتراب ملعبى أفضى له بمضايقاتى فى الحياة .

وفى اليوم التالى كانت سيارة محمد باشا تقف بالباب ويتدحرج منها كرة من أفخر الأنواع وأذكر أن ماركتها كانت حرف تى بالإنجليزية . وكنا نحن الأطفال نسمع عن عظمة هذه الماركة كأنها حلم من الأحلام هيهات أن يتحقق لنا رؤيته .

وأذكر أيضا من العظماء محمود باشا عبد الرازق كبير عائلة عبد الرازق وكان يحبنى ، وكان إذا جاء إلى البيت يحرص أن يسأل عنى قبل أن يسأل عن أبى فإذا وجدنى راح يلاعبنى ويداعبنى ولا يعنيه إن كان أبى موجودا أم لا حتى يأتى أبى . أما الرجل الذى اعتبرنى ابنه وكان

دائم السؤال عنى فهو الشخصية الإسلامية والسياسية الأسطورية عبد الحميد بك سعيد ، وكان رجلا ضخما لم أر أحدا فى مثل مهابته وكان ملتحيا وكان يمسك بعصا غليظة لم أر شبيها لها .

وقد علمت حين كبرت قليلا أنه لم يتزوج وكان إخوته حين يلحون عليه أن يتزوج يقول : يكفينى ثروت بن دسوقى فهو ابنى .

ذهبت مرة إلى مجلس النواب وأنا فى العاشرة من عمرى وكان أبى وكيلا لمجلس النواب ، ولقينى عبد الحميد بك سعيد وأنا فى طريقى إلى حجرة أبى بالمجلس فإذا هو يقبل علىَّ فى تهليل عظيم وفى ترحيب خجلت له ، وراح يقول : أجيب لك إيه .. أديك إيه .. خذ .. وأعطانى سبحته ذات الحبات التسع والتسعين ، وصحبنى إلى حجرة أبى وطلب لى كوب خروب وكان بوفيه المجلس شهيرا بخروبه .

وانتقلنا إلى بيتنا فى العباسية رقم ١٠ شارع الجنزورى وكان يقع على ميدان كبير . وكان البيت غاية فى الفخامة إذا قورن ببيت الملك الناصر . وغاية فى الضخامة إذا قورن بغيره من البيوت . ولا يمكن أن نطلق عليه قصرا بأى حال من الأحوال إنما كان بيتا واسع الإبهاء رحب اللقاء بعيدا عن الفخامة إذا أنت قارنته بقصور الأثرياء . كان البيت مكونا من طابقين فى كل طابق سبع غرف . وكان البدروم أيضا يحتوى على سبع غرف ، وكان بالسطح أربع غرف . فالبيت إذا كان مكونا من خمس وعشرين غرفة . وكان له سلاملك يصلح للسكنى ولكن صاحب البيت الذى باعه لنا المهندس حسين عزى كان قد باع السلاملك قبل أن يبيع لنا البيت واشترى أبى هذا السلاملك قبيل وفاته بسنوات قليلة . ثم بعنا نحن البيت والسلاملك جميعا بأثمان غاية فى

الضآلة بعد وفاة أبى . فلم يكن من المعقول أن نحتفظ بهما وقد أصبح لكل منا نحن الإخوة الأربعة أسرته الخاصة .

مكثت فى هذا البيت منذ أول يناير عام ١٩٣٩ حتى ١١ يونيه عام ١٩٥٠ وهو اليوم الذى تزوجت فيه وانتقلت إلى بيتى بالزمالك لأكون أسرتى مع زوجتى ابنة عمى الشاعر الكبير عزيز باشا أباظة . وعزيز باشا ليس فى مكان عمى إذا نظرنا إلى الترتيب الأسرى وإنما نشأت أقول له يا عمى لفارق السن . أما هو ففى مكان ابن عمى لأن أباه ابن عم أبى .

حين ذهبنا إلى العباسية كنت أنا متقدما للشهادة الابتدائية وقد رأى أبى أن ينقلنى إلى مدرسة العباسية القريبة من البيت وقد نلت منها الشهادة الابتدائية . ثم دخلت مدرسة فاروق الأول النموذجية وظللت بها حتى السنة الرابعة الثانوية . وبالطبع كان الناجح فى هذه السنة يمنح شهادة كانت تسمى شهادة الثقافة . وبالطبع كنت مصمما أن أنتسب إلى القسم الأدبى فى التوجيهية التى تقابل اليوم الثانوية العامة ولم يكن بمدرسة فاروق قسم أدبى . فانتقلت إلى مدرسة فؤاد الأول ونلت منها التوجيهية ، وتقدمت إلى كلية الحقوق عام ١٩٤٦ وتخرجت فيها عام ١٩٥٠ وكنت تزوجت قبل أن تظهر النتيجة ، والعجيب أننى نجحت فى جميع سنوات الانتقال فى الكلية إلا فى السنة النهائية التى تزوجت بعد الانتهاء من امتحاناتها . فقد ظهرت النتيجة واتضح أن عندى ملحقا فى علمين . فكنت أذاكر وأنا متزوج والحمد لله نجحت ولم أضطر إلى إعادة السنة . وهكذا تسلمتنى زوجتى أبقاها الله ورعاها وأنا طالب لا أزال .

أنا والكتابة

كنت في السنة الرابعة الثانوية بمدرسة فاروق الأول وكان الأستاذ ضاحي هو مدرس اللغة العربية وقد طلب إلينا أن نكتب موضوع إنشاء أذكر عنوانه الآن . وكتبت الموضوع واستعملت فيه فعل تساءل على وزن تفاعل . فإذا الأستاذ ضاحي يضع خطا أحمر تحت الفعل ، ويقول تساءل على وزن تفاعل وتفاعل أى تبادل الشيء بينه وبين إنسان آخر فالفعل خطأ .

وذهبت إلى البيت وكشفت في القاموس فوجدت الأستاذ مخطئا خطأ فادحا . فكتبت كلمة عن خطأ الأستاذ .

وكنت في ذلك الحين أنعم بصداقة من نوع عجيب هي مزيج بين الأستذة والصداقة في وقت معا . فقد كان الأستاذ العوضي الوكيل الشاعر العظيم من الذين يحبهم أبي حبا جما وكان يزورنا . يوميا وطلب إليه أبي أن يستقدم لنا مدرس لغة إنجليزية لى ولإخوتى فصحب إلى بيتنا الأستاذ عثمان نويه الذى قامت بينى وبينه هذه الصلة ، فقد كان أديبا من الطبقة الأولى في اللغة العربية والإنجليزية على السواء ، ومنذ اللقاء الأول شعر كل منا أنه قريب إلى الآخر قربا لا يكون إلا بصداقة سنوات طوال . وكان والد الأستاذ عثمان نويه قاضيا شرعيا زميلا للأديب العملاق أستاذ الأجيال وعميد كلية الآداب في ذلك الحين أحمد بك أمين ، وكان أستاذنا أحمد بك أمين يرعى شئون عثمان نويه وإخوته بعد وفاة والدهم فكان منه بمثابة الابن .

أطلعت عثمان على ما كتبت وسألته إن كان يمكن أن ينشر لى هذه الكلمة بمجلة الثقافة . وكان عمرى إذ ذاك ستة عشر عاما فشجعنى .

وذهبت بالكلمة إلى أحمد بك أمين وعرضتها عليه وحين قرأها الأستاذ العميد قال لعثمان : أهي لمدرس زميلك . وتردد عثمان قليلا وقال إنما هي لمحام صديق .

وفوجئت بالكلمة تنشر وكنت قد مهرتها بتوقيع تلميذ قديم واتخذت لها عنوانا تصحيح أوراق .

و لم تسلم الكلمة من بعض الحذف . ولكنها على أى حال نشرت وأنا اليوم أكتب هذا الكلام ولى بين يدى القراء أكثر من خمسة وثلاثين كتابا ، ولكننى لم أفرح بظهور كتاب لى ولا حتى كتابى الأول ابن عمار قدر فرحى بنشر هذه الكلمة الصغيرة القليلة فى باب البريد وبتوقيع لا يحمل اسمى . وربما أدرك القراء من الشباب أننى محق فى هذا الفرح إذا هم علموا معنى أن ينشر كاتب فى مجلة الثقافة التى يرأس تحريرها أحمد بك أمين جميعا وتشرف عليها لجنة التأليف والترجمة والنشر بمن فيها من أسماء يعتبر كل منها أمة فى ذاته .

وقد سعد أبى أن نشرت لى الثقافة و لم يكن صديقا لأحمد بك أمين وإنما كان يعرفه معرفة قارئ لكاتب .

أحدث نشر الكلمة انفجارا فى المدرسة فقد عرف زملائى جميعا أننى كاتبها ، فالحوار الذى قرأوه فيها كان بمشهد منهم . كان التلاميذ فى ذلك الحين يقرءون المجلات الأدبية .

واستدعانى ناظر المدرسة الرجل العظيم نجيب بك هاشم أطال اللّه عمره ، وطلب إلىّ فى عذوبة ورقة ألا أكتب شيئا بعد ذلك عن أساتذتى ، ووعدت بذلك والفرحة تخفق خفق أجنحة النسر بين ضلوعى .

ذهب عثمان نويه إلى أحمد بك وأخبره أن صاحب الكلمة تلميذ بالسنة الرابعة الثانوية التى كانت تسمى الثقافة والعجيب إن أحمد بك فرح بدلا من أن يغضب وطلب أن يرانى .

وتولانى الرهب وأنا فى طريقى إلى الأستاذ العميد . ولكن كم كان أنيسا وأبا وإنسانا . أبدى رضاءه عنى وكان منى بعد ذلك بمكان الأستاذ الحانى أو الأب الشفوق .

وطلب إلى أن أكتب . فكتبت مقالة عن الشاعرين أحمد القرعيش وتوفيق عوضى أباظة بعنوان شعراء مجهولون واخترت أبيات الأستاذ توفيق التى شكا بها عزيز باشا إلى جمال بك .

ولم تنشر الكلمة ، وانتظرت طويلا ، والعجيب أن أبى رحمه اللّه كان ينتظر معى ولم تنشر الكلمة .

وأقبل الصيف وانتقلنا إلى رأس البر وكنت أذهب كل أسبوع إلى مرسى العبارة القادمة من دمياط إلى رأس البر واشترى مجلة الثقافة ولا أجد الكلمة . وتولانى حزن شديد . وفى يوم نزلت إلى البحر فإذا بى أرى عن بعد رجلا يلف وسطه بقرعتين ويضرب الماء بيديه فى كبرياء وجلال . اقتربت منه فإذا هو أحمد بك أمين . كم فرحت ، وسألته عن الكلمة فقال : لقد طلبت إليهم أن يؤجلوا نشرها حتى نستأذن عزيز باشا .

قلت : وفيم الانتظار أكتب أبياتا أخرى للشاعر نفسه .

قال : يكون أحسن .

وطرت من الفرح وذهبت إلى البيت ورويت لأبى ما كان . وكتبت المقالة نفسها فقد كنت أحتفظ بصورة منها واخترت لتوفيق أبياتا أخرى .

وفى الأسبوع التالى نشرت المقالة كما كتبتها تماما . كم كان أسبوعا رائعا فى حياتى فقد ظهرت فيه نفسه نتيجة الثقافة وجاءتنا برقية من أستاذى وقريبى الأستاذ عبد الله عوضى أباظة المدرس بوزارة المعارف يهنئنى بنجاحى وحصولى على شهادة الثقافة .

لقد اختصر أحمد بك أمين من كلمتى الأولى حين هو يعتقد أننى محام . ولكنه منذ عرف أننى تلميذ لم يضع قلمه فى مقال لى قط .

فقد توالى نشرى بعد ذلك للمقالات فى الثقافة وكنت أزور العميد فى بيته وحدى أحيانا أو مع عثمان أحيانا أخرى . وأذكر أنه نصحنى بقراءة كتب كثيرة من التراث أذكر منها العمدة لابن رشيق والأمالى لأبى على القالى وغيرهما . وأذكر وأنا طالب فى التوجيهية أن ظهرت رواية العباسية لعزيز باشا وقد أنعم عليه الملك برتبة الباشوية تقديرا لشاعريته بمناسبة رواية العباسة .

ولكن الأستاذ يحيى حقى كتب فى مجلة الثقافة مقالة غاية فى العنف يهاجم رواية العباسة ويهاجم عزيز باشا فى ضراوة أذهلتنى . وكتبت مقالة أرد عليها . والشباب اندفاع وتهور فقد كنت فيما كتبت قاسيا غاية القسوة . وأرسلت المقالة إلى مجلة الثقافة .

ولم ينقض يومان حتى فوجئت بأحد الخدم فى بيتنا يقول كلم التليفون . قلت من ؟ فقال فى بساطة أحمد أمين . وذهب وجريت إلى التليفون فلم يكن العميد قد طلبنى قبل ذلك اليوم قط . وشعرت بالرهبة أن يطلبنى أنا التلميذ بالثانوى عملاق من عمالقة لغة الأدب فى العالم العربى وعميد كلية الآداب .

جريت إلى التليفون وجاءنى صوته الطيب البسيط الهادئ ... أنا أكلمك كأحمد أمين الوالد لا أحمد أمين رئيس تحرير الثقافة . مقالتك فى

الرد على يحيى حقى فى المطبعة فعلا ، ولكننى أرجوك أن تخففها فإن الرجل فقد زوجته منذ قريب ولا أحب أن تسىء إليه وهو فى حالته هذه . إن رأيت أن تستجيب لرجائى أكون شاكرا وإن رأيت أن تبقى المقالة كما هى فهى فعلا فى المطبعة . وقلت فى إذعان سريع ودون ريث تفكير : أمرك يا سعادة البك .

وكنت أتكلم من حجرة مكتب أبى فى البيت ، فاستبحت لنفسى أن أجلس على مكتب أبى فورا ولا أضيع وقتا فى الانتقال إلى حجرة مكتبى ورحت أكتب المقالة فى ردى عليه ودون هجوم ، ونزلت من فورى وذهبت إلى مقر مجلة الثقافة بشارع الكرداسة ودخلت إلى المطبعة مباشرة دون أن أصعد إلى عم عبد المتعال المشرف الإدارى على المجلة .

كان العميد صادقا . ومن الحتم أن يكون صادقا . وجدت مقالتى فى المطبعة فعلا فطلبتها من الطابع وأعطيته المقالة الأخرى وأحسب أنها نشرت دون حتى أن تمر على العميد رئيس التحرير . كم كان عظيما ذلك الرجل أحمد بك أمين .

العجيب أننى لم أكن قد تعرفت بالأستاذ يحيى حقى حتى ذلك اليوم ولكننى كنت قرأت له قنديل أم هاشم وأعجبت بها فى ذلك الحين كل الإعجاب كما أعجب بها أبى . وأذكر أن أبى هو الذى أعطاها لى وهو يمتدحها ، ولكنه أمرنى ألا أقرأها إلا بعد أن انتهى من الامتحان الذى كان وشيكا ولكننى خالفت أمره وليغفر لى اللّه . وأقفلت على نفسى حجرة مكتبى فى نفس اللحظة التى تركنى فيها أبى ولم أخرج إلا بعد أن انتهيت من قراءة القصة .

إنما عرفت الأستاذ يحيى حقى شخصيا بعد ذلك حين أصبح أبى وزيرا للخارجية وكان الأستاذ يحيى حقى مديرا لمكتب وزير الخارجية .

وقدمنى أبى إليه فنظر إلىّ مليا وقال لأبى لقد تعرفت عليه قبل ذلك دون أراه من مقالته عنى فى مجلة الثقافة ، وضحك الرجل وضحك أبى وشعرت أنا ببعض الحرج .

... حرج المواجهة فقط . فلم يكن بالمقالة ما يحرج بعد أن أعدت كتابتها استجابة لرجاء الوالد أحمد أمين لا رئيس التحرير كما شاء هو أن يتلطف فى الرجاء .

كان هذا هو بدء الكتابة عندى ثم جاءنى رسول من الأستاذ العظيم أحمد حسن الزيات صاحب الأسلوب الذى لا مثيل له فى عصره ، وقد تبنانى الرجل وأصبحت من كتاب الرسالة ولا أحسب أننى فى حاجة أن أذكر المجلات التى كتبت بها ، وحتى إذا حاولت فالذى لا شك فيه أن الذاكرة ستخوننى .

ولكن ربما يجمل بى أن أذكر كيف كتبت كتابى الأول ابن عمار . كان ذلك عقب وفاة أبى الذى انتقل إلى أكرم جوار فى ٢٢ يناير عام ١٩٥٣ . ولكن يبدو أن هناك كثيرا مما يقال قبل أن أصل إلى بداية تأليفى للكتب .

الكتب

فقبل ذلك اتصلت أسبابى بالشاعر الكبير أبى زوجتى عزيز باشا وقد يعجب القارئ من قولى اتصلت أسبابى وكأننى لم أكن أعرفه ، والقارئ محق إذا عجب . لقد كانت صلتى به وثيقة منذ ولدت بطبيعة الحال . ولكن هناك فرق أن يعرفنى كابن لأبى وبين أن يعرفنى كواحد من هواة الأدب . والأسرة الأباظية كثيرة العدد وهكذا لا يمكن أن تكون صلة البيوت بعضها ببعض على درجة واحدة . ولكن صلة بيتنا ببيت عمى عزيز باشا كانت من أوثق الصلات ، فزوجته وأمى كانتا صديقتين لصيقتين وكانت صلة عمى عزيز بأبى صلة أخ أصغر بأخ أكبر يحبه ويقدره غاية التقدير . وربما كان من الطريف أن أنقل هنا قصيدة كتبها عزيز باشا وهو بعد طالب بكلية الحقوق عام ١٩٢٤ يهنئ فيها أبى بمناسبة زواجه من والدتى وهى فى نفس الوقت ابنة عم أبى . ولم يكن يقع فى حسبان عزيز أباظة أن هذا الزواج سيثمر من سيصبح فيما بعد زوجا لصغرى ابنتيه . يقول عزيز أباظة الطالب بكلية الحقوق :

حى الغزالى وقل بلغت منزلة ... منفوسة فى الشباب المونق الحالى
موفورة الحظ من شأو يقصر عن ... إدراكه غيره إلا بآمال
قالوا الشبيبة طرف اللهو محتدما ... فقلت بل طرف أخلاق وأعمال
وقفت أنضر أيام الحياة على ... درك المحامد فينا والسنا العالى
فنلت فى غير غسر ما نهضت له ... والمجد صعب على طلابه غالى
يا صاحب القلم السحرى ترسله ... فيبعث الآى فى أسلوبها الحالى
وصاحب الخطب الفيحاء تنثرها ... نثر اللآلئ فى قاعات لألى
ليهنك اليوم أن تبنى بطاهرة ... بين الندى نشأت والنبل والمال

غنّى بفضل أبيها الناس قاطبة ووفقت بعد فى عم وفى خال
زين الغوانى الأباظيات قد ظفرت بالنافع المرتجى والباذل الغالى
الساكب العرف والمأمول جانبه والصائب الرأى والتدبير والقال
إن الزواج لموّت خير عاقبة إذا التزاوج لم يخرج عن الآل
لا تصغ للطب فى هذا وخذ ثمر التجريب تحيا رضىَّ النفس والبال
تحنو علىَّ وترعى غيبتى أبدا على الليالى بنات العم والخال
يرضين علمى وجهلى لا يضقن به ذرعا ويحمدن إكثارى وإقلالى
ويغتبطن بإجمال يشدن به وقد يكون ضئيلا شأن إجمالى
لزلتما تشهدان العيش متسقا والدهر فى حدب منه وإقبال

وقد ظلت هذه العلاقة عائلية . وكنا نحن الأبناء نتسامع بشعر عمنا عزيز ولكن لم يكن له عمل شعرى متكامل ، وكان تصورنا أنه بجرد هاو يقول الشعر فى المناسبات العائلية الظريفة يحيى بها أقاربه حتى فجعه الدهر وفجعنا بوفاة السيدة زوجته التى عاشت ما عاشت من عمر شعاعا من نور وحب على كل أقربائها . ما اختلفت يوما مع أحد ولم نسمع عنها نحن الذين فى عمر أبنائها إلا المديح والثناء ، ومثلنا نحن الأطفال يسمع ما لا يسمعه الكبار فالسيدات لا يتحرجن أن يذكرن غيرهن بصراحة أمامنا وأشهد اللّه ما رأيت من هذه السيدة إلا سماحة فى اللقاء وإشراقا فى التحية وترحيبا فى الاستقبال . وما سمعت عنها من سيدة فى الأسرة إلا ما يجعلها فى مرتبة رفيعة من الإنسانية ، فكأنما كانت بينهن ملاكا لا يصنع إلا النور ولا يشيع إلا الرضى والإيناس والطمأنينة .

وتفجر ينبوع الشعر فى إهداء زوجها الشاعر الأصيل الذى كان قبل وفاتها لا يجد ما يقول فيه . وشاء القدر أن يكون الألم المرير والفجيعة القاصمة وشجرته التى اجتاحها القدر هى التفجير لموهبته الشامخة ، فكان ديوانه الأول أنات حائرة الذى أصعده شهابا فى سماء الشعر العربى دون أى تمهيد عند من لا يعرفونه ، ثم كان بعد ذلك عزيز أباظة ثانى اثنين فى ميدان المسرح الشعرى وآخر العمالقة فى جيل شوقى وحافظ ومطران .

حدث أن قرأت له محاضرة يقول فيها : والنصائح هى أثقل الطيبات على النفوس . وأعجبتنى العبارة واستعملتها فى مقالة لى نشرت بجريدة الثقافة وقرأها عمى عزيز وكأنما عجب أن يقول فتى يافع فى عمر ابنته ما قاله هو . وفوجئت به يطلبنى فى البيت يبدى إعجابه بالمقالة فقلت له أن أهم ما فيها العبارة التى اقتبستها منك ، وتعجب أن أكون قد حصلت على المحاضرة فقلت له إنها طبعت وجاءنى منها نسخة . وبدأت بينى وبين عمى عزيز علاقة أدبية هى علاقة شاب بأبيه وعلاقة معجب بعملاق . وكان عمى عزيز مديرا لأسيوط ذلك الحين فكنت أنا أقوم بالإشراف على طبع رواياته فى القاهرة كما قمت بتصحيح اللغة العربية للممثلين فى مسرحياته ، ومع الأيام كانت العلاقة تتوطد زادها قوة حب عارم نشأ فى قلبى لابنته عفاف .

نوع عجيب من الحب . فهو جارف عنيف مندفع متدفق وهو فى نفس الوقت بعيد عن اللوعة والأسى والخوف والسهر والوجد ، وأحسب إن قليلا من الناس نعموا بهذا الحب . وإنى واثق أن الندرة من الناس نعموا بما نعمت به من أعقاب هذا الحب الذى أصبح زواجا وأصبح الزوجان فيه فردا لا اثنين . كل منا يسعد للآخر أكثر آلاف



عفاف حرم ثروت أباظة تحاول توريط والدها الشاعر عزيز أباظة في الشراء ..
وبينما أمينة هانم صدقي حرم عزيز باشا

المرات مما يسعد لنفسه . وكانت ابنتي ونور عيني وإشراقه نفسي ابنتي أمينة وكان ابني ونور أيامي وشعاع طريقي دسوقي .

وفي يوم سافر عمي عزيز إلى الخارج وعهد إلى أن أضبط الشكل على قواعد النحو مع المخرج العظيم فتوح نشاطي الذى كان بسبيله إلى إخراج رواية غروب الأندلس . وتوثقت صلتي منذ ذلك اليوم بالأستاذ فتوح نشاطي . وكنت في ذلك الحين قد بدأت أكتب تمثيلياتي الإذاعية بناء على دعوة من الأستاذ على الراعي ، فقد لقيته في ترام العباسية وعرفت منه أنه سيسافر بعد بضعة شهور إلى لندن ليحصل على الدكتوراه . وأبدى الأستاذ الراعي الذى أصبح فيما بعد الدكتور على الراعي إعجابه بالمقالات التي يقرؤها لى في الثقافة والرسالة، وخص بإعجابه لغة الحوار مما حدا به أن يدعوني أن أكتب تمثيليات إذاعية وأشهد اللّه أنني لولا هذه الدعوة من الدكتور الراعي ما فكرت مطلقا في كتابة تمثيليات للإذاعة .

وكنت حين اتصلت أسبابي بالأستاذ فتوح قد كتبت عدة تمثيليات مما جعله يعرض على أن أشترك في كتابة مسرحية عن الصداقة التاريخية بين المعتمد بن عباد الأندلسي ووزيره ابن عمار ، وطلب إلى أن أقرأ تاريخ الأندلس للعلامة دوزى وكان الأستاذ كامل كيلاني قد ترجمه إلى العربية .

وقرأت الكتاب وكتبنا المسرحية معا . ولكنني أنا وضعت عيني على شخصية ابن عمار كنموذج درامي قل أن يتكرر .

أما مصير المسرحية فقضى عليه الأستاذ يوسف وهبي برفضه لها رفضا قاطعا وأنا الآن وقد بعد العهد بيني وبينها لا أدرى هل رفضها لأنها تستحق الرفض أم لأسباب أخرى .

ولم تمض إلا شهور قليلة حتى فجعنى الدهر بموت أبى ، وكانت ضربة قاصمة بالنسبة لى فلم يكن مجرد أب أو مثل أعلى أو شخصية أسطورية أو حياة كاملة بالنسبة لى ، وإنما كان هذا جميعا وأكثر .

وفى نفس الفترة فجعت بوفاة طفلى الأول وهو جنين . وأصبحت حياتى ظلاما قاتما .

وكنت فى ذلك الحين أعمل بالمحاماة ولكنه كان عملا غير منتظم . فالمحاماة فى ظل الحكم القاهر الشمولى لا حياة لها .

وكنت أحب أن أبدأ حياتى بوظيفة وقد حصلت على شهادة الحقوق وأنا زوج ، وطلبت إلى أبى أن يوصى بى صديقه اللصيق د . حافظ عفيفى باشا الذى كان رئيس مجلس إدارة بنك مصر فقال فى حسم :

ـ انتظر منى أن أرفع سماعة التليفون وأطلب من أى شخص أن يعين لى ابنى ؟

وصمت .. وأدركت ... كيف لرجل عاش عمره مقصد الرجاء للناس أن يرجو هو الناس من أجل ابنه الذى هو ابنه . وهكذا لم أشغل وظيفة جديرة بهذا الاسم إلا بعد ذلك بربع قرن حين اختارنى الزعيم الخالد أنور السادات رئيسا لمجلس إدارة بمجلة الإذاعة والتليفزيون .

وهكذا كانت سنة ١٩٥٣ سنة من أعظم السنوات بلاء بالنسبة لى ، وأى بلاء يمكن أن يحيط بإنسان أكثر من أن يفقد أعظم إنسان فى حياته وأحب إنسان إليه .

وهو من قبل ومن بعد أبوه . ويفقد فى نفس الفترة أول طفل قبل موعد ولادته بأيام ، ولا يجد ما ينسيه بلواه وقد تعددت أشكال بلواه .

فهو فى نفس الوقت ليس له عمل ثـابت يسـتطيع وهـو يؤديـه أن ينسـى شيئا مما يتكلس فى حناياه من أحزان .

فى هذه الأيام بدأت كتابة رواية ابن عمار .. وكان كـل أملـى وأنـا أكتبها أن أجد لها ناشرا . وحين انتهيت منها توجهت إلى الأستاذ عـادل الغضبان المشرف على النشر فـى دار المعـارف وكنـت أعرفـه مـن قبـل ، وكان يقرأ ما أكتبه فى الجرائد . فقد كنت فـى ذلـك الحـين أكتـب فـى جريدة المصرى بصورة منتظمة فقد كان لى عمود أسبوعى فـى الصفحـة الأخيرة بعنوان أضواء . وكان صديقى عبد الرحمن فهمـى رئيـس القسـم الرياضى بجريدة الجمهورية الآن زميلا لى فى كلية الحقوق وكان آل أبـى لفتح أخواله ، وهكذا أصبح لى عمود ثابت فى جريـدة المصـرى وكنـت أكتب بشكل غير منتظم فى كثير من المجلات فى ذلـك الحـين ، وهكـذا وجد الأستاذ الشاعر عادل الغضبان أن اسمى لن يكون غريبا على القارئ إذا هو نشر الكتاب . ففعل .

كنت قد تعرفت بأستاذنا العظيم توفيق الحكيم فى عام ٥٠ وسأروى لك كيف تم ذلك . حين ظهر كتابى ابن عمار أهديته إليـه فـأعجب بـه كل الإعجاب وقال أنه يصلـح سينما ، وقـال إنـه كـان يـترك الصفحـة الأخيرة بأمل أن يجد صفحة أخـرى . وملأنـى الزهـو بهـذا الـرأى . وطبعـا أهديت نسخا من الكتـاب للأصدقـاء فـى جميـع الجرائـد والمجـلات وقـد كانوا كثيرين ، وعجبت أن أحدا منهم لم يذكر شيئا عـن الكتـاب علـى الإطلاق . وكنت أجلس مع أستاذنا الحكيم فـى جروبـى سـليمان باشـا وشكوت له إهمال النقاد هذا فقال إن الشهرة تأتى إليـك إذا ذهبـت إلى بار فى أحد الكباريهات واتفقت مع راقصـة ، إمـا أن تصفعـك قلمـا أو تصفعها قلما تصبح مشهورا فى لحظة . أمـا طريـق الكتـب هـذا فطريـق وعر وغير مضمون على الإطلاق . فضحكت فأنا لم أجلـس فـى حيـاتى

إلى بار ولا ذهبت عمرى إلى كباريه . كما أننى لست أسعى إلى الشهرة ولا تعنينى وإنما كنت أريد أن أكتب وأحس أن هناك من قرأ لى ، وأقبل الصيف وكنت أجالس أستاذنا الحكيم فى مقهى بترو وحدث أن ذهبت إلى المقهى مبكرا بعض الشىء فوجدت توفيق بك وحده . وما إن قعدت حتى التفت إلى وقال :

ــ مبروك يا سيدى .

وأحسست رنة عجيبة فى صوته .

فقلت :

ــ علام .

فقال :

ــ قرروا كتابك على طلبة الإعدادية هذا العام .

وكدت أطير من الفرح وسألته وأنا أحاول أن أخفى فرحى :

ــ أين قرأت هذا ؟

فأعطانى جريدة الأخبار فوجدت الخبر مكتوبا فى ركن أخى الأستاذ أنيس منصور ، وتفضل الذى كتب الخبر فوضع بعده علامة تعجب . وكأنما لم يكف الصحافة إهمالها بشأن الكتاب وإنما راحت أيضا تتعجب إن وزارة المعارف قررته على طلبتها فى الإعدادية . وكم كان الأستاذ توفيق الحكيم خفيف الظل وظريفا وهو يقول فى عفوية :

ــ شوف ولاد الكلب يأخذون كتابك ويسيبو كتابى .

وبتقرير كتابى ابن عمار تشجع الناشر أن ينشر لى روايتى هارب من الأيام ، وقد نلت عليها جائزة الدولة التشجيعية فى أول إنشائها ، وكان لهذه الرواية قصة مع عميد الأجيال الدكتور طه حسين وإنى راويها لك إن شاء الله فى مكانها الذى ستفرضه هى على .

* * *

شخصيات

عبد الفتاح الشناوى

هناك شخصيات كثيرة فى حياتى اخترت بعضها لأننى لا أتصور أن أكتب هذه الذكريات ولا تكون هذه الشخصيات جزءا منها . ولو كنت أكتب رواية ما تولتنى الحيرة التى تتولانى الآن فالشخصية فى الرواية أنا أصفها للموقف الذى أصنعه أنا أيضا ولكن حياتى وذكرياتى ومن عرفتهم لا حرية لى فى شأنهم إلا حرية الاختيار . ولو أطلقت لنفسى العنان وذكرت أقاربى جميعا وأصدقائى جميعا لما أمهلتنى الحياة حتى انتهى من كتابى هذا . وأحسب أن الحسم القاطع هو خير وسيلة لى فى اختيار الشخصيات .

منها ذلك الرجل العظيم الذى تربطنى به حتى اليوم صداقة لا عهد للناس بها إلا فى القليل النادر من الصداقات .

إنه عبد الفتاح الشناوى . عرفه أبى أول يوم عرفه وهو طالب ثائر بكليته العتيدة دار العلوم ، وكان أبى عرف إن الشرطة تحاصر الطلبة فى الكلية فذهب إلى هناك ورأى طالبا خالعا لحلته مكتفيا بملابسه الداخلية ممسكا بخرطوم ماء يصد به تشكيلات الشرطة كلما اقتربت من الكلية . وسأل عنه فعرفه وكان طالبا بالسنة النهائية فى دار العلوم . وقبض على الشاب فى هذه المظاهرة ثم سرعان ما أفرج عنه وعرفته أنا منذ لا أذكر متى ، فقد كان كثير الزيارة لأبى ونحن ما نزال نسكن بيتنا فى شارع الملك الناصر . وأصبح بعد ذلك سكرتيرا لأبى فى وزارة المواصلات والأوقاف ثم مديرا لمكتبه وعلى اختلاف السن بيننا قامت بيننا صداقة لم تزل حتى اليوم أقوى ما تكون الصداقة وأحسب إنه مر عليها من الزمن

قرابة خمسين عاما . لم أعرف فى حياتي نقاء في السريرة ، وصدقا فى الوفاء ، وتمسكا بالعهد ، وحفاظا على الكرامة ، وفناء من أجل الفكرة أو الصديق مثلما عرفت فى هذا الرجل مع إيمان بالله عميق وعلم بالشريعة دقيق ومع تذوق رفيع للأدب وقلم متدفق صادق مع صاحبه غاية الصدق حتى لتكاد ترى قلب الرجل يدق فى كلماته .

أروي عنه رواية واحدة ، وهى حسبى . كانت الثورة فى عنفوان سلطانها وجبروتها وكان هو مديرا لمكتب وزير أوقاف من وزراء الثورة . وجاءه خطاب ممهور بتوقيع مدير مكتب رئيس الوزراء موجها إلى الوزير شخصيا . فأمسك سماعة التليفون وطلب مدير مكتب رئيس الوزراء :

ـ سيادتك مدير مكتب رئيس الوزراء .

ـ أيوه ... أنا .. مين ؟

ـ أنا مدير مكتب وزير الأوقاف .. سيادتك بعت خطابا موقعا باسمك إلى الوزير .

ـ أيوه فيها إيه دى ؟

ـ هذا لا يجوز .

ـ إيه هو اللى لا يجوز .

ـ انت إذا أردت أن تخاطب الوزير فيجب أن يوقع الخطاب رئيس الوزراء لأنه وزير مثله أما أنت فتخاطبني أنا .

ـ أنت عارف بتكلم مين ؟

ـ أيوه مدير مكتب رئيس الوزراء .

ـ أنا فلان عضو مجلس قيادة الثورة .

وكان اسم فلان هذا يهز الجبال الراسية فى ذلك الحين ، ولكن الشناوى مضى فى حديثه وكأنه لم يسمع شيئا .

ـ ولكنى أكلمك كمدير مكتب رئيس الوزراء .

ـ أما أنت حمار صحيح .

ـ أنت ستين حمار .

ـ يلعن أبوك ابن كلب .

ـ يلعن أبوك ابن ستين كلب .

وانتهى الحديث وبعد دقائق نادى الوزير مدير مكتبه .

ـ إيه اللى انت عملته ؟

ـ حافظت على كرامتك .

ـ ملكش دعوة بى .

ـ وهو كذلك .

وذهب الشناوى إلى بيته وأعد حقيبة السجن ولكن الليل مضى و لم يأت أحد . وفى الصباح ذهب إلى مكتبه ورن جرس التليفون ورفع السماعة .

ـ من ؟

ـ أقولك من ولا تشتم .

ـ أنا لست قليل الأدب .

ـ يا سيدى أنا اللى قليل الأدب حقك على أنا فلان .

إنه عضو مجلس قيادة الثورة عاد إلى وعيه واعتذر .

وقال الشناوى :

ـ يا أفندم العفو .

ـ هل يكفيك هذا الاعتذار أم أجىء إليك خصيصا وأعتذر .

- لا يا سيدى هذا فوق الكفاية .

وبعد سنوات من هذه الواقعة التقى عضو مجلس قيادة الثورة بضابط يحمل اسم الشناوى فسأله :

- هل أنت قريب الشناوى الذى كان يعمل مديرا لمكتب وزير الأوقاف .

وقال الضابط :

- هو عمى .

فقال عضو مجلس قيادة الثورة :

- لو أن الثورة وجدت فى مصر عشرة رجال مثل عمك ما وصلت فى طغيانها إلى ما وصلت إليه .

أطال الله عمر عبد الفتاح الشناوى ، فما أحسب أنك تريد منى أكثر مما رويت لتعرف من هو .

* * *

نجيب محفوظ

حين كنت فى مدرسة المنيرة الابتدائية ، كان يدرس لى الحساب مدرس أحببته كل الحب ، هو الأستاذ فؤاد نويره أخو الموسيقار الكبير المرحوم عبد الحليم نويره ، وكان أخوهما الأكبر الأستاذ مختار نويره صديقا لأستاذنا نجيب محفوظ ، وكان لهم ابن أخت يقيم معهم يعتبر اليوم كبير مصورى التليفزيون هو الأستاذ صادق نويره .

حين انتقلنا إلى بيتنا فى العباسية ، فوجئت بأن أستاذى السابق فؤاد نويره يسكن مع إخوته فى نفس شارع الجنزورى الذى نسكن فيه ، كان مسكنه فى أول الشارع رقم ٢ وكان مسكننا فى آخر الشارع رقم ١٠

وسألنى يوما : لمن تقرأ ؟ فقلت : لطه حسين وتوفيق الحكيم والعقاد وهيكل والمازنى . فقال : بل يجب عليك أن تقرأ للشباب الجديد . قلت : مثل من ؟

قال :

ــ مثل نجيب محفوظ .

ــ ماذا يكتب ؟

قال : روايات وقصصا ، وسأحضرها لك غدا .

وقرأت روايات نجيب المصرية وقرأت همس الجنون ، وكنت قد بدأت أكتب فى « الثقافة » مقالاتى الأولى ، واتفقت مع الأستاذ فؤاد نويره أن يعرفنى بالأستاذ نجيب محفوظ . والتقيت به فى كازينو أوبرا فى أواخر عام ٤٣ أو أوائل عام ٤٤ لا أذكر ، ولكنى أذكر أننى منذ رأيته شعرت أننى أعرفه عمرى كله . وبدأت صداقة ما زالت مزدهرة حتى اليوم فى جمال الجدة وعبق العمر . نلتقى فالحديث موصول جديد ، وتلتقى منا المشاعر متفقة دائما . ما أندر ما اختلف بيننا رأى ، وعند

هذا الاختلاف أحترم رأيه وأقدره كل التقدير وأشعر أنه يبادلنى نفس الشعور . إنها مرات نادرة أكاد لا أذكر أنها كانت ، وربما كنت أروى عنها الآن خشية أن تكون حدثت وأنا نسيتها . لأنى فعلا لا أذكر أن خلافا فى الرأى وقع بيننا قط . أما الخلاف بين الأصدقاء فالمؤكد أنه لم يحدث مطلقا وطبيعى ألا يحدث ، فأنا أنظر إليه كأستاذ لى وأخ أكبر وهو ينظر إلى كأخ أصغر ومن الطبيعى ألا يقع بيننا خلاف قط .

وإن إعجابى بنجيب ليس مقصورا على فنه ، وإنما هو يتسع ويتسع فيشمل كل مناحى شخصيته لا أستثنى منها شيئا إلا تصديقه لكل ما تقوله الجرائد ، شأن جيله النظيف الذى نشأ فى جو سياسى نقى .

أعجبت بنجيب الروائى منذ قرأت له ، وأخذ إعجابى يزداد به كلما اتسعت مداركى فى فن الرواية والقصة . وكنت قد بدأت فى مقالاتى بالرسالة أنقد الكتب . وما زال عندى روايات لنجيب كتب لى إهداءها بقوله إلى الناقد فلان . وأذكر فى صيف ١٩٤٦ وكنت نلت شهادة التوجيهية وكنت بالإسكندرية وكنا فى رمضان ، وجاءتنى منه رواية القاهرة الجديدة .

وكنت قبل مجيئها قد بدأت رواية لكاتب آخر ، فعزمت أن أكمل الرواية التى بدأتها ، ثم أفرغ لرواية نجيب .

فرغت من الرواية الأخرى فى الساعة الثانية صباحا ولم تعجبنى الرواية . فقلت أقرأ بضع صفحات قليلة لنجيب لأصلح نفسى مما ألم بها من الرواية السيئة التى قرأتها .

بدأت قراءة القاهرة الجديدة ، وقد تجاوزت الساعة الثانية من الصباح واقترب الفجر ، فإذا بالعمل الرائع يمسك بتلابيبى لا يتركنى حتى أتناول سحورى ، ظللت بها حتى انتهيت منها ، ولم أكتف بذلك بل عمدت

إلى قلمى ورحت أكتب رأيى فيها ، وأذكر أننى قلت فى هذه المقالـة إن نجيب محفوظ يقتعد القمة من الرواية العربية دون منازع . وأرسلت المقالة إلى مجلة الرسالة ثم نمت .

وربما لا يعـرف الكثيرون أن نجيـب محفـوظ كـان فـى مكتـب وزيـر الأوقاف ، فقد كان الشيخ مصطفى عبد الـرازق باشـا فـى مكـان الأب الروحى له . وقد عين نجيب فى إدارة الجامعة عند تخرجه ثم ضمه فضيلة الشيخ مصطفى إلى مكتبه فى وزارة الأوقاف حين عيّن وزيرا لها .

فحـين أصبـح أبى وزيـرا للأوقـاف فـى وزارة إسمـاعيل صدقـى عـام ١٩٤٦ ، كان نجيـب سـكرتير وزيـر الأوقـاف لشئون مجلـس الأوقـاف الأعلى . وكنت أنا قد أصبحت فى الجامعة ، فهكـذا كنـت أسـتطيع أن أذهب إلى الوزارة أغلب أيام الأسبوع ، وازدادت صلتى توطدا بنجيب . وكان أبى يقرأ روايات نجيب وكان معجبـا بهـا كـل الإعجـاب وكنـت أبلغ نجيب إعجاب أبى هذا . ومرت سـنوات وكنـت أتمشـى مـع نجيـب محفوظ ، وأذكر أن ذلك كان فى عام ٥٤ وكنت أحثه علـى الـزواج ، ولم أكن أدرى أنه متزوج فعلا .

قطع نجيب حديثى قائلا :

ــ لقد رفعت دعوى على وزارة الأوقاف .

قلت له :

ــ لماذا ؟

قال :

ــ إن لى درجة متأخرة منذ عشر سنوات .

وصمت قليلا وأنا أفكر ، ثم قلت له :

ــ لقد كنت مستحقا لهذه الدرجة وأبى وزير ؟

قال :

- نعم .

قلت :

- مع كل هذه الصلة التى بينى وبينك وزرتنى فى البيت ، وطالما أخبرتك أن أبى معجب بك ولا تخبرنى أنك مستحق لدرجة يستطيع أبى أن يمنحها لك بجرة قلم .

قال فى عدم مبالاة وفى ابتسامة :

- وهل كنت أعرفك من أجل أن تسعى لى فى درجة . أترضى لى هذا ؟

هذا هو نجيب محفوظ . إنسانا لا نعرف له شبيها بين الناس .

فى عام ١٩٦٧ وبعد الكارثة الحربية ، رأيت أنه من العار على الكتاب أن يصمتوا جميعا ووطنهم يدمر هذا التدمير . فبدأت أتصل بالمثقفين وأعرض عليهم أن نكتب بيانا ونقدمه إلى رئيس الجمهورية نطالب بالحرية وبعودة الديمقراطية حتى تستطيع مصر مجتمعة بآراء المثقفين والشعب مواجهة هذه المصائب التى حاقت بالبلاد .

ووجدت عندهم جميعا حماسا منقطع النظير ، وكتبت البيان واشتركوا جميعا معى فى كتابته وبدأت مرحلة التوقيع .

فكان عجبا . لقد وقعت أنا ووقع نجيب . وفقط .

لقد وجد كل من اشترك معى فى كتابة البيان عذرا ، ولم يوقع واحد منهم على البيان الذى اشتركنا فى كتابته . وأصبح إرسال البيان عبثا . فأنا ونجيب نستطيع أن نمثل أنفسنا ، ولكننا بحال من الأحوال لا نستطيع أن نمثل جميع المثقفين ، وهذا هو نجيب محفوظ .

عين نجيب محفوظ رئيسا لمجلس إدارة مؤسسة السينما ، وكانت له سيارة مخصصة من المؤسسة وكانت ماركة مرسيلس ولم يكن عند نجيب سيارة خاصة فإذا هو فى بساطة وفى تواضع يأبى أن يركب سيارة المؤسسة ويتركها لمن يليه فى الوظيفة ، وقد كان شيوعيا معروفا بشيوعيته ، وشيوعيته لم تمنعه من ركوب السيارة . ولا يفوتنى أن هذا الرجل من خيرة الناس الذين عرفتهم رغم شيوعيته .

ولكن هذا هو نجيب محفوظ .

بيان البيان :

وقد مرت بى وبالأستاذ نجيب محفوظ ، وبعميدنا الأستاذ الكبير توفيق الحكيم تجربة فريدة فى يناير عام ١٩٧٣ ، وقد رأيت أن أثبتها هنا ما دمت قد تعرضت لنجيب ، فمن الطبيعى أن نذكر أحداث هذا البيان الذى عرف وقتها باسم ببيان توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وثروت أباظة . وقد كتبت ظروف هذا البيان للذكرى ، وإنى أنقلها مما كتبت فى ذلك الحين . كنت أكلم توفيق بك فى التليفون ، فطلب إلى أن أذهب إليه فى الغد لأنه كتب شيئا ويريد أن يطلعنى عليه . فلما كان الغد ذهبت إليه فى مكتبه فى الأهرام ولم أكن عينت به بعد ، فوجدت عنده إبراهيم منصور ووظيفته الرسمية شيوعى . وكان الأستاذ نجيب محفوظ فى مكتبه الخاص بالأهرام مشغولا بحديث إذاعى ، وحين جلست إلى توفيق بك قرأ على بيانا أعده يعبر عن أفكار طالما تحدثنا فيها ، سواء فى سيراميس أو فى بترو بالإسكندرية أو فى غرفته فى جريدة الأهرام . ووجدت البيان معبرا تماما عن رأينا ولم أعدل فيه شيئا، إلا أننى طلبت حذف بعض الجمل فى صدر البيان تتحدث عن أمجاد رئيس الجمهورية وعظمة تاريخه الوطنى . وأذكر أننى قلت لا داعى لذكر هذا التاريخ .

وقبل توفيق بك حذف هذه الجمل وخرج البيان فى صورته التى ظهر بها .

أرسل توفيق بك البيان ليكتب على الماكينة . وفى أثناء انتظاره سألت من الذى سيوقع على البيان فأخرج لى إبراهيم منصور قائمة بالذين يتوقع أن يوقعوا على البيان ، وحين قرأتها وجدتها جميعا من الشيوعيين ، فقلت له إن البيان بهذا الشكل سيكون معبرا عن رأى الشيوعيين وحدهم ولا يكون معبرا عن رأى الأدباء والكتاب الذين جاء فى صدر البيان أنه يعبر عن رأيهم . وسألنى إبراهيم منصور : ومن ترشح للتوقيع غير هؤلاء ؟ قلت أرشح كثيرين . وأمسكت بورقة وكتبت فيها أسماء تزيد فى عددها عن الأسماء التى كتبها وجميعهم من غير الشيوعيين . وأذكر انه فى أثناء النقاش سألنى عن بعض أسماء من التى كتبها إن كنت أعتقد أنها شيوعية ، فقلت : نعم إنهم شيوعيون . فقال : وماذا تفعل إن كان الكتاب شيوعيين ؟ فقلت له : هذا غير صحيح ، فأغلب الذين ذكرتهم ليسوا كتابا بالمعنى المفهوم وإنما هم نقاد ، أما الكتاب فقلة بين الشيوعيين ، والأغلبية الكاثرة من الكتاب الخلاقين لا يدينون بالشيوعية . وحينئذ سألنى عمن أرشح فكتبت الأسماء فقال هل تعتقد أن هؤلاء سيوقعون البيان ؟ قلت : أنا لا أدرى ما يمنعهم من توقيعه .

وجاء البيان وكان الأستاذ نجيب محفوظ قد فرغ من حديثه الإذاعى ، فانضم إلينا فى غرفة الأستاذ توفيق الحكيم . وراجع الأستاذ توفيق البيان فوجد فيه بعض أخطاء مطبعية رأى أن يصلحها ، وكنت على موعد أزف ، فسألته هل سيغير شيئا فى الصفحة الأخيرة ؟ فقال لا . فقلت إذن أوقع أنا وأذهب إلى موعدى . ووقعت البيان مراعيا أن أترك مكانا لمن هم أكبر منى سنا ليوقعوا قبلى ، وتركتهم وذهبت إلى موعدى .

حاولت فى يوم الاثنين ٨ يناير أن أتصل بالأستاذ يوسف السباعى لأخبره عما فعلنا فلم أجده .

شغلت فى يوم الثلاثاء ببعض شأنى وذهبت يوم الأربعاء ٩ يناير إلى مكتب توفيق بك بالأهرام ، فوجدت نجيب بك محفوظ وعبد الحكيم قاسم ، ودار بيننا حديث لا أذكر تفاصيله إلا أننى أذكر منه أننى قلت إننا يجب أن نرسل البيان إلى جهات رسمية حتى لا يتخذ شكل المنشور. وسأل عبد الحكيم قاسم وماذا يضر لو أصبح منشورا ؟ فقلت هذا عمل لا يليق بنا ونحن نعمل عملنا فى وضح النهار ولا نعمل شيئا من شأنه أن يخفى . وأذكر أيضا أننى قلت إننا يجب أن نختار الأسماء التى توقع على البيان ، فالاسم الذى يحمل تاريخا غير الأسماء الصغيرة ، ولكن يبدو أن هذا الرأى كان متأخرا لأن إبراهيم منصور كان قد جمع فعلا أغلب التوقيعات التى رشحها فى بادئ الأمر .

وقال توفيق بك : لقد رشحت أسماء للتوقيع . فقلت إننى قادم خصيصا لأخذ النسخة التى سيوقعون عليها . وقلت إن الأستاذ عبد الحميد جوده منتظرنى فى مكتبه ليوقع على البيان وسأذهب بعده إلى الأستاذ يوسف السباعى . فقال توفيق بك ؛ عظيم . وأعطانى نسخة من البيان فطلبت منه أن يوقع عليها . فقال لقد وقعت . فقلت ولكنك لم توقع هذه النسخة ولابد أن توقعها أنت ونجيب بك . ووقع توفيق بك ونجيب بك ووقعت وطلبت من عبد الحكيم قاسم أن يوقع فتحرج قائلا : إنه قادم ليوقع ، ولكنه كان يفكر أن يوقع على الصورة التى مع إبراهيم منصور ، فقلت له أنه لا فارق بين الصورتين . ووقع عبد الحكيم قاسم ، وهممت أن أدع الغرفة ولكن توفيق بك استوقفنى ليحملنى رسالة إلى الأستاذ يوسف السباعى فى مكتبه ، وأخبره توفيق بك أنه وقع

بيانا هو ونجيب بك وثروت . فقال يوسف بـك وأنـا أوقعـه . وأعطـانى السماعة فقال يوسف بك ما دمت وقعت البيان فإنى أوقعه . فقلـت أنـا قادم إليك . فقال أنا منتظرك وليس معى سيارة وسأنزل معـك لتوصلنـى إلى نادى القصة فقلـت أنـا فـى الطريـق . ونزلـت وذهبـت فـورا إلى دار الهلال فوجدت يوسف بك ومعه السيدة سكينة السادات . وقال يوسف بك إنه علم أن الأستاذ توفيق الحكيم كتب بيانا فى غاية العنف فقلت أنا لا أرى هذا الرأى ، وقدمت إليه البيان وقرأه فرأى أنه فعلا عنيـف وقـدم البيان إلى السيدة سكينة السادات وقرأته فإذا بها تثور وتقول : أين كنتـم قبل اليوم ؟ وأنا سأخبر نجيب محفوظ أنه ما كان يجـوز لـه أن يوقـع مثـل هذا البيان وأى جديد فى أن البلد تغلى الكل يعرف إن البلد تغلى وهـذا كلام لا يصح أن يكتب . وقال لها الأستاذ يوسف السباعى : اتركـى لى الموضوع فليس من المفروض أن تكونى قد قـرأت البيـان . فقـالت وهـى ثائرة أنا لا شأن لى وسأترككم . وخرجت دون أن تهدأ ثورتها . وقـال يوسف بك كيف توقع بيانا كهذا ؟ قلت أنا لا أرى فيه شيئا . وسألنى أين توفيق بك ؟ فقلـت لـه فـى مكتبـه . وكلمـه يوسـف بـك وقـال إن الرئيس لوقرأ البيان لصعق . وعلى كل حال ما حـاجتك أن تكتـب هـذا البيان تستطيع أن تقابل الرئيس وتقـول لـه مـا تشـاء ووافـق توفيـق بـك واتفقنا على ان يذهب توفيق بك ونجيب محفوظ فى صحبة يوسـف بـك إلى الرئيس لمقابلته وإبلاغه فحوى البيان . وطويت أنا البيان ونزلت دون أن ينزل معى يوسف بك ، فقد عدل عن الذهاب إلى نادى القصة .

وذهبت إلى مـنزلى معتقـدا أن لا داعـى أن أجمـع توقيعـات لبيـان لـن يرسل إلى أية جهة .

في صباح الخميس ذهبت إلى بعض شأني ، ثم ذهبت إلى مكتب الأستاذ السحار . وتذكرت أنني كنت طلبت من الأستاذ يوسف السباعي أن يعين شخصا ما من البلد . فأحببت أن أسأل سكرتيره حسين رزق عما تم بشأن هذا التعيين فطلبته وأجابني عما سألته عنه . ثم أخبرني أن مكتب الدكتور عبد القادر حاتم سأل عن تليفوني وأن الدكتور يريدني .طلبت بيتي فأخبرتني زوجتي أن مكتب نائب رئيس الوزراء اتصل بها وأخبرها أن الدكتور يريد أن يقابلني الواحدة والنصف . وكانت الساعة حينئذ تقترب من هذا الميعاد فنزلت إلى مكتب الدكتور حاتم ، فأدخلت فورا إلى المكتب ووجدت الأستاذين توفيق الحكيم ونجيب محفوظ . واستقبلني الدكتور حاتم ببشاشة وقال أين أنت لا نراك إلا في التليفزيون وقد أخذت نصف الشاشة ، ولكنك جميل والناس تحب أن تراك . فقلت إذن أعطوني عمولة على ما يشترى من أجهزة التلفزيون . وضحكنا ثم بدأ الدكتور حاتم يتكلم في الموضوع الذي استدعانا من أجله ، فقال سمعت أنكم كتبتم بيانا وقعه توفيق بك ونجيب بك وثروت بك وأمل دنقل ، وفهمنا أنه لم يكن يريد أن يوقع معنا الشباب الصغير والشيوعيون . فقلت إننا وقعنا البيان حقا ولكننا لا نعرف شيئا بشأن من وقع عليه بعدنا . فقال إن كثيرا من هؤلاء الذين وقعوا يتقاضون مرتبات من سفارات أجنبية ، ثم قال إنه حين عرف أسماء من وقعوا البيان . قال إن هناك ثلاثة لا شك في إخلاصهم ونقاء ضمائرهم وهم نحن الثلاثة . ثم بدأ يشرح الموقف فقال إننا أخطأنا إننا لم نعلن الهزيمة يوم ٥ يونيو ونوقع الصلح وهذا الخطأ هو الذي نعانيه حتى اليوم ونحن اليوم نعبئ قوتنا . ولكن الرئيس يرى أن كل تأخر إنما هو في مصلحتنا . وقال ضمن ما قال إنه حين كان في لندن استطاع أن

يحصل على وعد بإعطاء أسلحة من إنجلترا ، وأنهم يحصلون على أسلحة فرنسية عن طريق ليبيا ، وأندونسيا تقدم ما تستطيع من الأسلحة .

وحين انتهى من حديثه بدأ توفيق بك الكلام فقال إن الخطأ الذى وقع لم يقع يوم ٥ يونيو وإنما وقع يوم ١٤ مايو فى ثورة التصحيح ، فقد كان يجب على الرئيس أن يعلن فى ثورة التصحيح أن كل الذى قيل قبل هذا اليوم كان نوعا من الدجل ثم يعلن حقيقة الموقف .. ثم استطرد توفيق بك أنه لم يحدث فى التاريخ أن تهزم دولة وتعلن فى نفس اليوم أنها ستحارب ، كما لم يحدث أن حاربت دولة مهزومة بعد خمس سنوات أوست من هزيمتها . ثم ضرب مثلا بألمانيا فى الحرب العالمية الأولى ، فقال إنها لم تهزم على أرضها ، وإنما كانت جيوشها منتصرة فى فرنسا ، ولكنها حين علمت أن أمريكا ستدخل بجيوشها الجديدة أعلنت الهزيمة لأن قوادها كانوا يحسنون التفكير ويقدرون الأمور تقديرا سليما بعقليات متفتحة تنظر إلى الحقيقة وتتصرف على أساسها ، وقد أدرك هؤلاء القواد أنه لا قبل لجيشهم المتعب بقوات أمريكا التى كانت فى كامل قواتها . وهكذا أعلنت ألمانيا هزيمتها ولأول مرة فى التاريخ كانت الدولة المنهزمة تملى شروطها على الدولة المنتصرة. وحين فكرت ألمانيا فى خوض حرب أخرى لم يعلن هتلر ذلك ، وإنما راح يعد جيوشه فى صمت وفى نفس الوقت يبعد الأنظار عن الجيش بالمنشآت الكبرى فى ألمانيا ، ويهتم حتى بالأولمبياد الرياضية ويصرف الأنظار عن أى تفكير حربى من جانبه . ورد الدكتور حاتم بأن الأستاذ توفيق الحكيم على حق ، وقال ضمن ما قال أنتم عقلاء البلد . فقلت ما دمت ترى ذلك فلماذا لا تستشيرون عقلاء البلد ؟ وقال الأستاذ نجيب محفوظ إذا دخلنا فى حرب مع إسرائيل فإن الاحتمال المتوقع أن تكون الحرب

سجالا ، فمن المستبعد أن نهزمها هزيمة ماحقة من الجولة الأولى ، وحين نتفاءل نستبعد أن تهزمنا مرة أخرى هزيمة ماحقة من الجولة الأولى فخير الاحتمالات أن تكون الحرب سجالا ، وقال الدكتور حاتم نعم وقال الأستاذ نجيب : فى هذه الحرب من المتوقع أن تصاب المنشآت عندنا والمرافق وقال الدكتور نعم فقال الأستاذ نجيب ولن يسمح لنا بعد ذلك بهزيمة إسرائيل هزيمة نهائية بل ستتدخل الدول وحينئذ سنضطر أن نقبل ما يعرض علينا الآن .. فلماذا لا نقبله دون أن نخرب بلدنا ؟ فقال الدكتور حاتم وماذا نقول للشعب وماذا نقول للشعوب العربية وماذا نقول للحكومات العربية وللفدائيين ولأهل فلسطين .

وحينئذ قلت : لقد قال لنا الرئيس فى الاتحاد الاشتراكى فى اجتماع كان الكتاب قد اشتركوا فيه ، أن أمريكا تعطى الأسلحة بإغداق لإسرائيل ، وكرر ما كان قد قاله أحد المسؤولين الأمريكيين من أن أمريكا ستعطى السلاح لإسرائيل رغم علمها بأنها متفوقة فى السلاح . وقال الدكتور حاتم نعم . فقلت وتقول سيادتك إننا نأخذ الأسلحة من روسيا وإنجلترا وفرنسا ؟ فقال نعم . قلت ألا ترى أن أمريكا تفوق هذه الدول مجتمعة ؟ فقال وماذا تفعل مع أمريكا ؟ لقد جاء إلينا مندوبها وحين عرضنا عليه ما نقبله قال أنه لا يريد منا خيرا من ذلك . فقلت ، نعم ولكنكم وقعتم المعاهدة المصرية السوفيتية بعد هذه الزيارة بيومين . وسكت الدكتور حاتم .

ثم تكلم عن الطلبة واستحالة إجابة مطالبهم . فقال الأستاذ نجيب محفوظ ولماذا لا تجتمعون بهم وتبينون لهم وجهة نظركم ؟ ثم تطرق الحديث بعد ذلك إلى البلاد العربية فذكر أن موقعة الطيران الأخيرة التى دارت فى سوريا سقط فيها ست طيارات لسوريا واثنتان لإسرائيل ، فى

حين كانت البيانات تقول شيئا يختلف عن هـذا كـل الاختـلاف . وفـى نهاية الاجتماع سألنى الدكتور حاتم ماذا كنتم تنوون أن تفعلوا بالبيان ؟ فقلت كنا ننوى أن نرسله إليك وإلى رئيـس الجمهوريـة . وانتهـى اللقـاء عند ذلك .

وفى نفس اليوم مساءً ، ذهبت أنا والأستاذ نجيب إلى الحرافيش بمـنزل الأستاذ محمد عفيفى ، وجاء إلينا هناك الأسـتاذ طـلال سـليمان منـدوب الأنوار اللبنانية وقد تعود أن يسهر مع الحرافيش كلما جاء إلى القاهرة .

وقد أخبرنا الأستاذ طلال أن صديقا لـه قـدم مـن بـيروت وأخـبره أن البيان نشر هناك . ودهشت أنا والأستاذ نجيب محفوظ لهذا ولم نعلق .

فى صباح الجمعة ذهبت أنا والأستاذ الشـرقاوى إلى الأسـتاذ يوسـف فى منزله وذكرت له ما دار بيننا وبين الوزير . وفى مساء الجمعة ، التقينا أنا والأستاذ نجيـب فـى مقهـى ريـش وسـأل الشـبان عمـا دار فـى لقـاء الوزير ؟ فتركت الحديث كله للأستاذ نجيب وكان حريصا كـل الحـرص فلم يذكر أية تفاصيل ، وإنما اكتفى بأن قال إننا قلنـا للوزيـر رأينـا بكـل صراحة .

فى مساء السبت ، أخبرنى الأستاذ يوسف السباعى أنه سيكتب بيانـا آخر ويريدنى أنا والأستاذين توفيق الحكيم ونجيب محفوظ أن نوقع عليه . فقلت له أسألهما . وكنت على موعد فـى دار الأدبـاء لحضـور اجتمـاع مجلس إدارة جمعية مؤلفى الدراما ، واتصلـت مـن هنـاك بالأسـتاذ توفيـق الحكيم وذكرت له ما يريده الأستاذ يوسف السباعى . فقـال إنـه يرفـض التوقيع على أى بيان حتى لو كان أعنف من بيانه هو ، لأنـه قـال كلمـة ولا ينوى أن يتراجع عنها أو يزيد عليها . وكلمت الأستاذ نجيب محفـوظ فى مقهى ريش لأن السبت كان بداية إجازة العيد وأحببت أن أسأله رأيه

قبل أن ألتقى بالأستاذ يوسف السباعى . وكنت أعلم أن الأستاذ نجيب سيسافر فجر الأحد إلى الإسكندرية لقضاء الإجازة . وأخبرنى الأستاذ نجيب أنه لا يرفض التوقيع فى ذاته ، ولكنه قال لابد أن يوقع على هذا البيان كل من وقع على البيان الأول حتى لا نخرج نحن عن قوم وثقوا بنا ووقعوا البيان تضامنا معنا . وأنهى حديثه بقوله إنه يفوضنى فى هذا الأمر ، فإذا وقع الأستاذ توفيق ووقعت أنا فهو يوقع معنا .

قابلت الأستاذ يوسف السباعى بدار الأدباء وأخبرته برأى الأستاذين توفيق ونجيب وطبعا لم أذكر شيئا عن نفسى معبرا أن عدم توقيعى أمر مفروغ منه . وبدا على الأستاذ يوسف الامتعاض ولكنه لم يقل شيئا .

مضت إجازة العيد وسمعنا فى أثنائها أن البيان نشر فى عدة جرائد عربية منها البيروتية والسياسة الكويتية وغيرها . ثم سمعت أنه نشر بجريدة الأنوار التى يصدرها سعيد فريحة بدعم من مصر . ثم علمت من توفيق بك أنه أرسل البيان إلى لجنة تقصى الحقائق . وفى يوم الجمعة الذى تنتهى به الإجازات ذهبت إلى الأستاذ توفيق فى جلسته الأسبوعية بفندق سميراميس ، فأخبرنى أن مكتب الوزير كلمه قبل أن ينزل ليخبره أن الوزير يريد أن يلقاه فى اليوم التالى يوم السبت فى الساعة الحادية عشرة ، وأن الوزير يريد أيضا الأستاذ نجيب محفوظ كما يريدنى . فقلت له إن أحدا لم يطلبنى والأستاذ نجيب محفوظ فى الإسكندرية . وذكر لى الأستاذ توفيق أنه سأل السكرتير عمن سيكون موجودا غيرنا فى هذا الاجتماع ، فقال الأستاذ سعيد فريحة صاحب جريدة الأنوار .

وفكر الأستاذ توفيق قليلا ثم قال أنا لن أذهب . فقلت وكيف لا تذهب ؟ وماذا أعمل أنا وحدى ؟ قال أنت حر ، ولكن أنا لن أذهب . فقلت له وأنا لن أذهب إذا لم يكن الأستاذ نجيب معى فقال هذا شأنكما

فقلت أسأل عن الأستاذ نجيب . وذهبت إلى تليفون الفندق وطلبت الأستاذ نجيب فوجدته قد وصل لتوه من الإسكندرية ، ووجدت مكتب الوزير قد اتصل به . فقلت له توفيق بك لا يريد الذهاب . فاندهش لهذا وقال دعني أكلمه . وطلبت إلى توفيق بك أن يكلم نجيب بك وقد استطاع نجيب أن يقنعه أو يحيل لى ذلك على الأقل .

وذهبت إلى منزلى وقالت لى زوجتى إن بعضهم سأل عنى . وقال إنه مكتب النائب وقال إنه سيعود إلى الكلام فى الساعة الثالثة . وقبل أن تكمل حديثها دق جرس التليفون وأبلغت بالموعد .

وقبل أن أتناول الغداء دق جرس التليفون مرة أخرى ، وكان المتحدث توفيق بك ووجدته يخبرنى أنه لن يذهب فهو لا يقبل أن يستدعيه السكرتير وكأنه موظف عند الوزير . وقال لقد كان أبوك وزيرى فعلا وكان يكبرنى فى السن ومع ذلك كان يتحرج أن يستدعينى . وناقشته طويلا أننى والأستاذ نجيب سنكون فى وضع حرج ، فقال هذا شأنكما . أما أنا فلن أذهب . فقلت له إذن دعنى أبلغ الوزير على الأقل أنك عاتب أنه لم يكلمك هو شخصيا ، وطبعا سيحاول هو أن يصحح هذا الخطأ وسيستدعيك شخصيا وتجىء . فوافق توفيق بك واقتنعت أنا بسذاجة أنه قبل هذا الاقتراح .

وفى مساء الجمعة ، ذهبت إلى نجيب بك فى مقهى ريش وانتحيت به جانبا وأخبرته عن موقف توفيق بك الجديد ، وسألته ماذا يرى بشأننا؟ فقال نذهب نحن لأنه لا يليق بنا ألا نذهب وننفذ ما اتفقت عليه مع توفيق بك .

وفى الموعد المحدد ، ذهبت إلى مكتب الوزير فوجدت نجيب بك قد سبقنى ودخل ، ووجدت فى مكتب السكرتير الأستاذ سعيد فريحة كما

التقيت بالشاعر نزار قباني . ولم أكن أعرف الأستاذ فريحة فقام السكرتير بعملية التعارف .

وحين دخلت مكتب الوزير وجدت الوزير قد علم بعتب توفيق بك . وحاول الاتصال به فلم يستطع . وحاولت أنا من مكتب الوزير الاتصال به فلم أستطع . وكلف الوزير سكرتيره أن يكرر المحاولة وإن كنت قد أدركت أن توفيق قد عملها ونوى ألا يجيء بأى حال .

وكان فى مكتب الوزير مع نجيب بك الدكتور جمال العطيفى وكيل مجلس الشعب ، وظننت أن حضوره كان صدفة ولكن تبين من المناقشة أن حضوره كان مرتبا .

وقبل أن تبدأ المناقشة قال الدكتور حاتم لسكرتيره من بالخارج ؟ بأس أن يحضر معنا فهو منا وعلينا وكأن الأمر محض صدفة .

ودخل الأستاذ سعيد فريحة . وسلم علينا مرة أخرى وجلس . وبدأت المناقشة فقال الوزير هل أرسلتم البيان إلى الأنوار ؟ فقلت له كيف نرسله إلى جرائد لبنانية ، كان الأحرى لنا أن نرسله إلى الجرائد المصرية إذا كنا نفكر فى نشره ؟ فقال فكيف وصل البيان إلى لبنان ؟ فقلت له هل أرسلنا البيان إليك ؟

فقال لا . قلت : فكيف وصل إليك البيان ؟ وكأنه لم يكن يتوقع هذا السؤال فراح ينظر حواليه وهو يقول أنا .. أنا .. فتركته لحظات ثم قلت له لقد وصل إلى لبنان بنفس الطريقة التى وصل بها إليك . فنظر إلى الأستاذ سعيد فريحة وقال له : شفت أنهم لم يرسلوا البيان . فقال الأستاذ سعيد فريحة إن مندوب الأنوار فى القاهرة طلال سلمان وهو شاب شيوعى هو الذى أرسل البيان . وقد نشرته حين وجدت عليه توقيع توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وثروت أباظة . وحينئذ سأل الدكتور

العطيفى عما أردناه بالبيان ؟ فقلت الحرية . فقال وهل كانت هناك حرية قبل العهد الحاضر ؟ فقلت إنه لا شك أن قدرا من الحرية قد تحقق ، ولعل هذا القدر هو الذى أتاح لنا أن نكتب هذا البيان ، ولكن الحرية لا تتجزأ وقال الأستاذ فريحة ما هى الحرية التى تريدونها ؟ فقلت له لا تحتاج الحرية إلى تعريف فهى معروفة تماما . فقال مستنكرا : هل تطلب الحرية فى زمن الحرب فقلت له لا تذكر الحرب فقد كان برناردشو يلعن أبو تشرتشل على الجزمة فى أشد أوقات الحرب العالمية الثانية عنفا ، و لم يصنع تشرتشل شيئا إلا أنه كان يقول نحن نعمل والبهلوان يلهو . وكمان يا أستاذ سعيد نحن لسنا فى حرب ، منذ ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ نحن لسنا فى حرب . فقال الأستاذ فريحة فعلا هذا صحيح .

وقال الدكتور : وما هى مظاهر عدم الحرية ، فقلت له لقد وصلت الرقابة إلى القصص . فقال مثل ماذا ؟ فقلت له مثل رواية الحب تحت المطر للأستاذ نجيب محفوظ التى مزقتها الرقابة . فقال وهل أنا مسئول عنها ؟ فقلت إنك على رأس الجهاز فأنت مسئول عن كل موظفيه . فقال وماذا أيضا ؟ فقلت له لقد منعت لى قصة فى الجمهورية . فقال يا أخى أنت صديقى وتزورنى فى بيتى .. والواقع أننى كنت أزوره قبل أن يعود إلى الوزارة كما أننى أكن كل حب وتقدير — فلماذا لا تخبرنى فقلت أنا أزورك فى بيتك لأسأل عن صحتك أو لنتكلم فى مسائل عامة ، ولا أرى من اللائق أن أزورك لأقول لك أن قصة لى منعت من النشر . فقال الوزير إنكم أنتم الدولة ، ولكنكم تعرفون الظروف التى نمر بها . وقال الأستاذ نجيب إن رئيس الجمهورية قد دعا إلى حرية الرأى ، فإذا لم نقل رأينا فكأننا لا نعبأ بدعوة رئيس الجمهورية وهى أشرف

دعوة يمكن أن توجه إلى أصحاب الرأى . ولاشك أنكم تعرفون أننا توفيق بك وثروت وأنا لسنا من طلاب البطولات . وقال الدكتور جمال العطيفى الواقع أن الحياة النيابية سواء في العهد الماضى أو في عهد الثورة لم تشهد حرية برلمانية كالتى شهدتها فى ظل مجلس الشعب الحالى . فقلت لا لا يا دكتور جمال مش للدرجة دى . فقال كيف أنا أستطيع أن أتحدث فى هذا الموضوع ؟ فقلت كلنا نتحدث . أنت لا تستطيع أن تنسى أن مجلس النواب الوفدى فى عهد الوزارة الوفدية قد منع قانون الصحافة أن يصدر . فقال آه تقصد الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٥٢ ؟ فعلا لقد كانت أحسن الفترات في العهد النيابى . فقلت كانت أحقر الفترات في العهد النيابى .

وفى نهاية الحديث قال الدكتور جمال لى لقد قلت جملة مهمة وهى أن قدرا من الحرية قد تحقق . إن هذا القدر هو الذى جعلكم تكتبون البيان . ولا أدرى لماذا توقعت من هذه الجملة أن إجراء معينا سيتخذ ضدى .

وقد عزلت .. عزلت من الاتحاد الاشتراكى ، ولم أكن عضوا به فى يوم من الأيام ، ولكنها كانت الوسيلة الوحيدة لإعلان غضب الحكومة علىّ ، وحرمانى من الكتابة أو التعامل مع وسائل الاعلام التى تشرف عليها الدولة من إذاعة وتليفزيون وسينما ومسرح . وطبعا يلحق بذلك منعى من السفر ، ومنع اسمى من أن يذكر فى أية جريدة أو أى جهاز من أجهزة الإعلام . أما بالنسبة لتوفيق بك ولنجيب بك فقد صدرت الأوامر بمنعهما من التعامل معه ، كما صدرت الأوامر بعدم نشر أى شيء لهما أو عنهما دون أن يرد اسم أى منهما فى قوائم العزل وهذا هو البيان :

بيان من الكتاب والأدباء

نحن الكتاب والأدباء الموقعين على هذا البيان ، قد رأينا من واجبنا أن نعاون ونشارك من مواقعنا فى المجتمع ـ مؤسسات الدولة فى تقصى الحقائق فى حالة الاضطراب التى بدت بوادرها الآن فى بعض الأحداث الجارية . يدفعنا إلى ذلك شعورنا بالمسئولية التاريخية وثقتنا بشعبنا وتقديرنا لوطنية رئيس الدولة . واعتقادا منا بأن فى استطاعته الإمساك بالزمام للسير بالبلاد فى طريق محفوف بالمخاطر ، تهب عليه الزوابع من كل جانب ويحتاج إلى الحكمة وسداد الرأى لتجنيب الوطن ويلات الشطط ، وتوجيهه إلى حيث يجد نفسه ويؤكد شخصيته ويسترد قوته .

ولما كان من خصائص الكتاب والأدباء بحكم رسالتهم فى الأمة أن يكتشفوا باطنها وضميرها . فى حين أن مهمة الصحافة هى تحرى أخبارها ، ومهمة الهيئات الرسمية هى تقصى حقائقها من واقع أحداث معينة قد تكون مجرد بثور خارجية لمرض دفين . ودخان ظاهرى لنيران متأججة تحت رماد . لذلك كان علينا نحن الكتاب والأدباء أن نكمل الصورة ونقدم المعونة بإبراز ما استتر وتخفى مما يعتمل الآن ويضطرم فى باطن الأمة وضميرها .

وليس ذلك فقط لمجرد استكمال عمل تقوم به الهيئات الأخرى ، ولكنه أيضا للخشية من أن يهمل أمر هذا الغليان الذى يفور فى نفوس الناس . فيجد طريقه فى أى لحظة إلى الانفجار وتقع الكوارث . وذلك أنه مما لا شك فيه لدينا أن البلد يغلى فى الباطن على نحو لم يعد يخفى على أحد . وقد لا يعرف كل الناس تعليلا لما يشعرون به من قلق واضطراب وغليان داخلى . وقد يبدى البسطاء من الناس والأبرياء من الشباب تعليلات مختلفة يسوقونها بغير تفكير أو تمحيص ويرددونها فى

أحاديثهم أو يصعدونها فى منشوراتهم . وهذه التعليلات أو المطالب أو الاحتجاجات قد تبدو فى أغلبها سطحية أو غير ناضجة أو مدروسة . ولكن يكفى الحقيقة التى لا شك فيها وراء كل هذا وهو شعورهم جميعا بأنهم قلقون بشىء ما ، أو أنهم ما عادوا يحتملون ما هم فيه من إحساس بالضياع .

والآن ما هو منشأ هذا الإحساس العام بالقلق والاضطراب والضياع فى نفوس الناس ؟

لعل السبب الأهم فى ذلك هو عدم وضوح الطريق أمامهم ، فالصيحة المرتفعة فى كل حين بكلمة المعركة ، وأن الطريق هو المعركة كان من الممكن أن يكون هو الجواب على أسئلتهم والطريق الواضح أمام أعينهم .

وهذا لا شك ما أرادت الدولة أن تقدمه كجواب أو مصباح الرؤية فى طريق المستقبل المعتم .

ولكن مع الأسف ، تمضى الأيام وتصبح كلمة المعركة مجرد كلمة غامضة لا حدود لها ولا أبعاد لمعناها ولا تحليل لعناصرها ، مجرد كلمة مطلقة تلوكها الأفواه . مجرد لقمة مستهلكة لكثرة مضغها . ويصبح الناس ويمسون وهذه الكلمة تتردد على جميع النغمات فى الأناشيد والأغانى والخطب والشعارات حتى فقدت قوتها وفاعليتها بل وصدقها ، وصارت اللقمة الممضوغة فى الفم غصة . لا هم يستطيعون ابتلاعها ولا هم يجرؤون على لفظها . وأصبحوا فى حيرة من شأنهم ، وأصبح طريق المستقبل أمامهم مرة أخرى مسدودا وهم فى ضياع .

ولما كان الشباب هو الجزء الحساس فى الأمة . وهو الذى يعنيه المستقبل أكثر من غيره . فهو لا يرى أمامه إلا الغد الكئيب ، فهو يجهد

فى دراسته ليحصل على شهادته النهائية ، فإذا هى شهادة القذف به فى رمال الجبهة لينسى ما تعلمه ولا يجد عدوا يقاتله . وهذا أيضا هو الضياع . أما بقية المواطنين فهم يعيشون بالنسبة إليه فى حياة صعبة سيئة الخدمات العامة . وكل نقص وإهمال أو توقف أو عبث يختفى خلف صوت المعركة وفى انتظار المعركة وتمحكا بالمعركة ، وإذا بالأمر فى نظرهم ينقلب إلى مهزلة وإلى سخط وإلى قرف عام .

هذا بعض ما استقر فى الضمائر هذه الأيام . ولابد من حل سريع لهذا الوضع . ولا يمكن أن يكون هناك حل إلا فى الصدق . والصدق وحده ، لأن الصدق هو الذى ينهى الحيرة ويقنع الناس ويهدئ النفوس .

ولأن الغليان فى باطن الإناء يهدأ إذا كشف الغطاء ، فإن الشعب يريد أن يقتنع بشىء لأنه غير مقتنع . ولابد لراحة باله واقتناعه من عرض حقائق الموقف أمامه واضحة ، وهذا يقتضى النظر فى تغيير بعض الإجراءات التى تسير عليها الدولة اليوم : ومنها حرية الرأى والفكر وحرية المناقشة والعرض لإلقاء الضوء على كل شىء حتى تتضح الرؤية . وليكن ذلك داخل المؤسسات ، إذا كانت السرية فى ظروفنا الحاضرة تقتضى ذلك . على أن لا يكون للدولة رأى مسبق تضغط به على أهل الرأى وتجعلهم مجرد أبواق لترديده وترويجه .

بل أن تكون الدولة آخر من يبدى الرأى بعد أن تستمع وهى جادة صادقة إلى رأى مصر الحر أولا . وأن تصوغ هى رأيها من رأى الشعب وممثليه لا أن تصوغ الرأى وتضع الشعار وتلقى به إلى الناس وتفرضه عليهم فرضا .

آن للدولة فى هذه الظروف العصيبة أن تتخفف هى من كل العبء والمسئولية ، وتضعها على ظاهر الأمة . إن فى ذلك مصلحتها ، وصيانة لها أمام التاريخ .

الاثنين ٨ يناير سنة ١٩٧٣

هذا هو البيان كما نشرته الصحف العربية ، وقد كان من نتيجة نشره أن أصدر الاتحاد الاشتراكى قرارا يفصلى ، وتلك كانت عجيبة يندر مثلها فى العجائب ، لأننى لم أكن فى حياتى عضوا فى الاتحاد الاشتراكى ، وقد صحب هذا الفصل الصورى أمر بألا يظهر اسمى فى الصحف على أى صورة من الصور . وانطبق هذا الإجراء الأخير على الأستاذين توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وقد سعدت فى هذه الفترة سعادة منقطعة النظير ، لأن كل الذين كانوا يصنعون الكلمات المتقاطعة كانوا يصرون على أن يأتى اسمى من تركيب الحروف مع بعضها البعض .

ويجب اليوم أن أشهد أن هذه العقوبة التى أنزلت بى وبتوفيق الحكيم وبنجيب محفوظ تعتبر شيئا هينًا بسيطًا غاية البساطة بالنسبة للعقوبات البشعة التى كانت ترتكب فى العهد السابق على عهد السادات .

واستمر عزلنا إلى أواخر سبتمبر عام ١٩٧٣ .

وقامت حرب أكتوبر ٧٣ ...

وانقلبت الموازين منذ رأينا مصر تنتصر لأول مرة فى تاريخ العرب منذ صلاح الدين .

وأصبح ثلاثتنا توفيق بك ونجيب بك وأنا أشد المتحمسين لهذا النصر . فقد كنا نتوقع أى شىء إلا أن نحارب وننتصر ، وقد أعربنا عن توقعاتنا فعلا وتصورنا هذا ونحن نناقش الدكتور حاتم .

فقال توفيق بك إنه من غير المعقول أن تحارب دولة ما فى نفس اللحظة التي تعلن فيها انهزامها . وليس من المعقول أن تحارب بعد خمس سنوات أوست لأن النتيجة معروفة لا شك فيها . فأى جديد يمكن أن يحدث فى هذه السنوات القليلة ليقلب الأمر بالنسبة إليها من دولة مهزومة إلى دولة منتصرة .

وقال نجيب بك للدكتور حاتم : المؤكد أن الحرب لوقامت فستكون سجالا ووافقه الدكتور حاتم . وقال نجيب بك إذن فالحرب ستستمر فترة بيننا وبين إسرائيل ، ومعنى ذلك أن نخرب مصر تماما . ونحن بعد هذه الحروب لا نطيق هذا الخراب فلماذا لا ننسى الحرب ونلتفت إلى مرافقنا المنهارة ونحاول إصلاحها بدلا من زيادة تخريبها ؟

وقلت أنا : نحن واثقون أنه ليس هناك حرب منتظرة ، وأن الأمر لا يعدو أن يكون دعاية ليلهينا عن أوضاعنا الداخلية . فخير لكم ولنا أن تعطونا الحرية بدلا من الادعاء بأننا سنحارب ؛ فالشعب كله يعرف أننا لن نحارب . ويكفى مقالات محمد حسنين هيكل دليلا على أن الحرب مستحيلة استحالة مطلقة .

ولكن السادات صنع الحرب . ولكن السادات انتصر .

وحقق معجزة لم تكن تخطر لنا على بال .

وهكذا أصبح ثلاثتنا من أشد المؤيدين للنصر ولصانع النصر .

رواية الرواية

تعودنا لسنوات أنا ونجيب محفوظ أن نقضى بعد الظهيرة من أيام الخميس معا ثم نسهر معا فى الحرافيش ، وكان دأبنا أن نذهب معا إلى مقهى عرابى بميدان الجيش بالعباسية ، ونجلس هناك مع أصدقاء العباسية ، وأغلبهم من رفاق الطفولة والصبا والشباب الباكر لنجيب محفوظ . وكانوا جميعا يعرفوننى بحكم إقامتى فى العباسية ، ولهذا كنت أشعر بينهم بألفة لا يحسها الإنسان إلا مع أصدقاء قدامى . وكنا نتركهم فى الثامنة ونتجه إلى مكتب الأديب الفنان المحامى عادل كامل بشارع فؤاد ، وكنا كثيرا ما نضطر أن نترك السيارة فى مكان بعيد بعض الشىء عن مدخل المكتب الذى كان لابد أن يخترق من أجله مقهى بين عمارتين ضخمتين . وكنا نجلس قليلا بمكتب عادل كامل ، ثم نتجه جميعا إلى سهرة حرافيش بعد أن نكون قد اشترينا ـ أو اشترى نجيب على الأصح ـ كيلو كباب من العباسية وكيلو حلويات شامية من ميدان الأوبرا . وكان نجيب يشارك فى أكل الكباب ولا يذوق الحلويات الشامية تنفيذا لأوامر الطبيب التى يصدع لها بكل الأمانة التى نعرفها عن نجيب فى كل ناحية من نواحى الحياة . اتصلت هذه الناحية بخاصة شأنه أو بشأن الآخرين .

تركنا السيارة فى مكان تصادف أنه كان بعيدا بعض الشىء عن مكتب عادل كامل ، ومشينا نتناقل الحديث فى شئوننا السياسية ، وفجأة وجدتنى أقول له :

ـــ نجيب بك ، إن أحدا لم يتكلم حتى الآن فى شرعية حكم الطاغية .

وصمت نجيب لحظات ثم قال :





الصديق والأستاذ . .

ذكريات و مذكرات

- فكرة جيدة .

قلت :

- ربما حاولتها .

وانتهى الحديث عند ذلك وقضينا سهرتنا كما تعودنا أن نقضيها .

ولكن الفكرة ظلت تدور فى ذهنى وتلح على فى إصرار شديد .

وما لبثت الأيام أن انضجتها ووجدت نفسى اميل كل الميل ان أرمز إلى الشرعية بالزواج .

وهكذا كان لابد لى أن أقرأ الفقه على المذاهب الأربعة وأركز فى قراءتى على عقد الزواج . فوجدت أبا حنيفة وهو الذى نطبق مذهبه فى أحوالنا الشخصية يقول ان الفتاة إذا لم تعط الوكالة لمن يزوجها يقع الزواج باطلا نسبيا . والبطلان النسبى يختلف عن البطلان المطلق .

فالبطلان النسبى يمكن أن يزول ويصبح العقد صحيحا إذا زال سبب البطلان أما البطلان المطلق فلا يصحح أبدا .

ويقول أبو حنيفة فى حالة زواج البنت بتوكيل باطل : يزول البطلان إذا عادت البنت وقبلت الزواج فانه فى هذه الحالة يصبح زواجا صحيحا خاليا من البطلان .

وكتبت رواية (شىء من الخوف) معتمدا على هذه القاعدة الشرعية حتى اذا فرغت منها وكتبت على الآلة الكاتبة وفكرت أن أجعل نجيب يقرؤها قبل أن تنشر .

وبينما هو يقرؤها كنت أنا التقى بالروائى الكبير والصديق الاصيل فتحى غانم فى لجنة القصة بالمجلس الأعلى . وكان فى ذلك الحين رئيس مجلس ادارة دار روز اليوسف وصباح الخير طبعا . فرأيت ان أعرض فكرة ان تنشر صباح الخير روايتى الجديدة فرحب الرجل ترحيبا شديدا .

وحين فرغ نجيب محفوظ من قراءته طالعنى برأيه أن الرواية شديدة الوضوح وقال :

ـ لا أدرى أن كنت رأيتها كذلك لأنك أخبرتنى عن مضمونها أم لأننى أنا استنتجت هذا ... لماذا قلت لى مضمونها .

فضحكت وقلت :

ـ وماذا ترانى كنت أفعل وفكرة الرواية خطرت لى وأنا سائر معك .

فقال :

ـ ربنا يستر .

وبعد أيام قليلة كلمت فتحى واتفقت معه أن أمر عليه فى مكتبه . وهناك قال لى كلمة فيها كثير من المجاملة والتحية .

ـ إذا جاءتنى مقالة من طه حسين فأنا أرسل بها إلى المطبعة فورا وكذلك حين تجيئنى رواية لك فانى أصنع نفس الصنيع . لقد أرسلت الرواية إلى المطبعة .

والحقيقة أن تحية الصديق مست قلبى ولكننى اشفقت أن يفعل فانه لا يرضينى بحال أن يرفت فتحى غانم من وظيفته ، وهذا إذا لم يتعرض لما هو أشد وانكى من أجل ان أنشر أنا رواية لى مهما تكن أهميتها .

وقعت فى حيص بيص كما يقولون .كلمت نجيب بك فقال :

ـ لابد أن تبحث عن طريقة تجعله يقرأ الرواية .

طلبت فتحى غانم فى البيت ، وقلت له :

ـ ليس نشر الرواية هو المهم وانما المهم أن أعرف رأى روائى أعتز برأيه فيها فارجوك ان تقرأها .

وبعد أيام قلائل التقينا فى لجنة القصة فأبدى إعجابه الكبير بالرواية وقال :

– إنها مثل قطعة الخشب العربى (الأرابسك) الذى يتكون من قطع صغيرة متراصة ، والتكوين فى ذاته يعطى الصورة الكاملة التى أرادها الفنان .

أنا لا أشك لحظة أن فتحى غانم فهم الرواية كل الفهم ، ولا أشك لحظة أنه حين نشرها كان غاية فى السمو والشجاعة فى وقت معا . فالرواية مخالفة لرأيه الشخصى وهى فى نفس الوقت كفيلة أن تعرضه لما لا يعلمه إلا اللّه وحده . وأن ينشر مسئول عملا روائيا وهو فى نفس الوقت روائى لا يمكن أن يفوته ما فيها من رمز ، دليل على أن فتحى غانم رجل يندر مثيله بين الرجال ، ودليل على أنه أكبر من كل ما يكبل حرية الرجال . فليس عجيبا أن أكن لهذا الرجل فى نفسى كل إجلال وإكبار وحب . وقد أثبتت لى الأيام فيما بعد أنه مطبوع على هذا الشرف ولا يتخذه فى موقف ثم يتخلى عنه فى آخر . وإنما أشهد اللّه والحق أننى ما رأيته إلا بهذا السمو وهذه الرجولة ولو يختلف بيننا الرأى ما شاء الرأى أن يختلف .

ولكنه رجل استطاع فى كل المواقف أن يمثل لى الإنسان حين يرتفع الإنسان إلى أرفع درجات الإنسانية .

نشرت الرواية بمجلة صباح الخير . وكنت فى ذلك الحين أنشر كتبى بدار المعارف عائدا إليها ، فعرضت الرواية على الأستاذ عادل الغضبان وقرأها وقال لى :

– إننا الآن نحاول أن نرتفع بسلسلة اقرأ ، وقد أخذنا كتابا جديدا من الدكتور طه حسين ونريد أن ننشر (شىء من الخوف) فى هذه السلسلة . فقلت لا بأس ، وقد نشرت شىء من الخوف فعلا فى مارس ١٩٦٧ . بعد أن تم نشرها فى صباح الخير قبل ذلك .

تلك هى قصة شيء من الخوف الكتاب ، وبقى أن نروى قصة شىء من الخوف فى السينما .

حين بدأت صباح الخير نشر القصة وقفت فى إشارة مرور ، وتصادف أن وقف بجانبى صلاح ذو الفقار بسيارته . وصلاح كان زميلى فى مدرسة فاروق الأول الثانوية ، وبيننا صداقة دائمة من أيام المدرسة . حيانى وقال إنه يريد أن ينتج روايتى التى تنشر فى صباح الخير . قلت لا بأس .

وانتهى الحديث عند ذلك .

وسافرت إلى الإسكندرية . وفى ليلة عدت إلى بيتى متأخرا فإذا بى أجد الأستاذين العزيزين حسام الدين مصطفى وعبد الحى أديب ينتظراننى فى سيارة أحدهما أمام البيت . وكأنما خجلا أن يصعدا إلى البيت وينتظرا فيه . وفوجئت بحسام يقول لى :

ـ الرواية التى تنشر فى صباح الخير . هل أخذها أحد منك للسينما ؟

قلت :

ـ لا .

قال :

ـ طيب يا أخى ألست أنا الأولى بها وقد أخرجت لك هارب من الأيام ؟

قلت :

ـ تحت أمرك .

قال :

ـ هل عندك نسخة منها .

وصعدت إلى بيتى وأحضرت نسخة من نسخ الآلة الكاتبة وأعطيتها للصديقين الكريمين ، واتفقنا أن نلتقى فى اليوم التالى بكازينو جليم الذى يقع منزلى أمامه مباشرة .

وقال حسام :

ـ إن هذه القصة تشبه هارب من الأيام .

وأنا متعود ألا أناقش رأيا رآه أحد فى أى رواية لى مرتئيا أن المناقشة عبث مضحك ، فالرواية كتاب يقرؤه القارئ وحده ويكون رأيه وحده ، فكيف أستطيع أن ألاحق القراء فى كل ناحية لأناقشهم رأيهم ، ولهذا أجبته دون أى تفكير :

ـ ما دمت ترى هذا ، فلابد أنك محق من وجهة نظرك على الأقل .

فقال آسفا :

ـ إذن فإلى اللقاء فى رواية أخرى حتى لا أكرر ما فعلته فى هارب من الأيام .

قلت :

ـ إن شاء اللّه .

وفى صباح اليوم التالى مباشرة ذهبت إلى مقهى بترو ، فإذا بى أجد كاتب السيناريو صبرى عزت الذى أسرع إلىّ قائلا :

ـ لقد دخت بحثا عنك .

وجلسنا وسألته عما يريد فقال :

ـ صلاح ذو الفقار يريد أن ينتج رواية شىء من الخوف للقطاع العام ، وعرضها على حسين كمال ففتن بها ويريد أن يخرجها بأى طريقة .

واتفقنا أن نسافر إلى القاهرة ونلتقى بسعد وهبه الذى كان رئيسا لشركة القاهرة للإنتاج السينمائى ، وكان صلاح ذو الفقار وحسين كمال قد حادثاه فى شأن الرواية .

وذهبت إلى الصديق القديم سعد وهبه ، وسألنى فى بساطة عن موضوع الرواية فلخصتها له ، فطلب عقدا وقدمه لى ووقعته وقدر أجرا سبعمائة جنيه وكان مبلغا طيبا فى عام ٦٦ . وأعتقد أنه ينبغى أن أشيد هنا بشجاعة سعد وهبه فهو مسرحى محترف وقد فهم - بطبيعة الحال - مغزى الرواية ولكنه كان من الشجاعة بحيث يوقع العقد فورا .

وبدأنا العمل . فى منزلى أحيانا وأحيانا فى منزل صلاح ذو الفقار ، ووقعت حرب ٦٧ ونحن نعمل فى الرواية . فتوقفنا أياما قليلة ثم عدنا إلى العمل .

وقبل أن يتم السيناريو ، تبرع صديق لنا بمكتب الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة فى ذلك الحين بكتابة تقرير للوزير أن الرواية مقصود بها رئيس الجمهورية وأنها هجوم عنيف عليه وعلى الحكم جميعا .

ويشاء الله أن يكون نجيب محفوظ هو مستشار الوزير للشئون الفنية فى هذه الفترة ، فكان طبيعيا أن يرسل الوزير ملخص الرواية والتقرير إلى الأستاذ نجيب محفوظ . وكتب رأيه بمنتهى الأمانة والصدق مع النفس مرتئيا أنها رواية وطنية . وقد كان هذا رأيه والوزير سأله عن رأيه . فقال .

وتم تصوير الرواية . وكان حسين كمال سعيدا بعمله غاية السعادة فرأى أن يعرضها على الوزير .

وفى عرض خاص بدأت الرواية تعرض على الوزير ووكيلين للوزارة معه . وانتهى عرض النصف الأول من الرواية ، وكان الوزير على موعد

لم يستطع الاعتذار عنه فأضيئت الأنوار ، ورأى الحاضرون الدموع تملأ وجه الوزير من الإعجاب ، وقال فى فخر لحسين كمال :

– لقد عبرنا بهذه الرواية البحر الأبيض المتوسط .

وذهب الوزير إلى موعده ، وطلب إليهم أن ينتظروه ليعود فيكمل مشاهدة الفيلم . وتم ذلك ورأى الوزير النصف الآخر من الرواية وأضيئت الأنوار . لقد فهم الوزير معنى الرواية فهما تاما . وتداول الرأى مع مستشاريه ، فانتهى بهم الرأى أن تعرض الرواية على سامى شرف فى رياسة الجمهورية .

كان الوكيلان صديقين لى فكلمت أحدهما ولن أذكر اسمه فإذا هو يقول :

– أنا خصم ولا يجوز أن أكون قاضيا .

فضحكت فى نفسى كثيرا ، فلم أكن أتصور أن المسألة وصلت إلى خصومه وقضاء .

ما سمعته بعد ذلك أن سامى شرف أعفى نفسه من رؤية الرواية وعرضها على عبد الناصر مباشرة . وسمعت أنه قال حين انتهى من مشاهدتها :

– لماذا تعرضون على هذه الرواية . هل أنا عتريس هذا ؟ إذا كنت أنا عتريس والشعب لم يقتلنى فهو شعب من الحمير .

وأمر أن تعرض الرواية دون أن يحذف منها شىء مطلقا .

وفى عرض خاص ضم جمهورا كبيرا شاهدت الرواية ، وكان معى الأخ الصديق عبد الرحمن الشرقاوى . وحين انتهى العرض قبلنى الشرقاوى بحماس شديد . ووقف أحد المشاهدين وطلب أن يسألنى سؤالا وسأل :

ــ ألا ترى أنك جعلت الشعب المصرى سلبيا إلى أقصى درجة ؟

وجدتها فرصة لا مثيل لها قلت له :

ــ أين هو الشعب المصرى هذا ؟

قال :

ــ أهل القرية .

قلت :

ــ ومن قال إن أهل القرية هم الشعب المصرى . اسمع أنت والآخرون ، إن أى إسقاط على هذه الرواية يكون من داخل المسقط وعليه وحده أن يتحمل مسئوليته ! .

وذاعت هذه الكلمة ، فامتنع المغرضون عن إعلان ما أدركوه من إسقاط . ولكن الشيوعيين لم يمتنعوا يوما من أيام عرض الرواية ولأسابيع بعدها عن مهاجمتى فى ضراوة ، وهذا أمر أسعد به دائما ؛ فليس أحب إلى من أن أسمع مذمتى من هؤلاء الرهط .

كثير من الصحفيين يسألوننى حتى اليوم ، أليس فى عرض هذه الرواية دليل على الحرية ، وأضحك أنا . فلو كان هناك حرية ما كتبت أنا هذه الرواية أصلا ولما كتبتها رمزا . أما أنها عرضت فرئيس الجمهورية الأسبق لم يكن من الغباء إلى درجة منعها . فلو كان منعها بعد أن أصبحت فيلما مكتملا لهرب الفيلم وسبقته الدعاية أنه الفيلم الذى منعه رئيس جمهورية مصر . وإنى لأعجب لمن يبحث عن أى حرية فى ذلك العصر ، ولكن ماذا نقول إلا أن نضرب كف عجب بكف دهشة ، ونقول مع القائلين : ولله فى خلقه شئون .

* * *

توفيق الحكيم

أمام البنك الأهلى الذى أصبح اليوم البنك المركزى المصرى على ناصية شارع شريف عند التقائه بشارع قصر النيل ، كانت هناك مقهى وكان يجلس إليها أستاذنا توفيق الحكيم . وكنت أمر كثيرا بهذا المكان ، فالشارعان فى مكان من الطبيعى أن يكون المرور به كثيرا . كنت حينما أرى توفيق الحكيم أعبر الشارع وأقف أمام البنك الأهلى وأظل أنظر إليه دقائق ، ثم أمضى لشأنى وأنا سعيد بما تمكنت من النظر إلى توفيق الحكيم بأكمله .

وبدأت بعد ذلك الكتابة فى مجلة الثقافة . ودعانى أحمد بك أمين أن أحضر ندوة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، فكنت أذهب كل خميس فى الساعة الخامسة مصطحبا الأستاذ عثمان نويه ونشهد الندوة التى كانت فى حجرة منسقة الأساس فيها سعة غير فادحة ، وكان نجوم الندوة أحمد بك أمين طبعا وعبد الواحد خلاف بك الذى كان ناظرا علىّ فى مدرسة فاروق الأول حينما كنت فى السنة الأولى لها ، وهو من أعظم الرجال الذين عرفتهم . وكان بين العمالقة الدكتور أحمد زكى الرجل الذى جمع النبوغ الشامخ فى العلم إلى الموهبة الشاهقة فى الأدب . وكان معهم أيضا اسعاف النشاشيبى وكان النقاش يحتدم بينه وبين هؤلاء الأعلام حول الدين والعلم . وكان غفر اللّه له ملحدا عميق الإلحاد . وكان توفيق بك الحكيم حريصا على حضور هذه الندوة ، وكان يحضرها أيضا الفيلسوف العملاق والأديب الباذخ الدكتور زكى نجيب محمود أطال اللّه عمرهما . وكنت أظل طوال الجلسة صامتا لا أفرج شفتى عن كلمة .

وحين أصبح أبى وزيرا للشئون الاجتماعية كان توفيق بك الحكيم موظفا فى الوزارة ، وقد دعاه إلى الغداء فى البيت كما دعا الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى . وقد يعجب القارئ أننى لم أتهيب فى حياتى إلى هذه السن لقاء أحد لا أستثنى من ذلك رؤساء الوزارات . ولكننى تهيبت لقاء العملاقين وخجلت أن أحضر معهما الغداء ، واكتفيت بأن نزلت إلى الشارع من الباب الخلفى لمنزلنا بالعباسية ورأيتهما يخرجان من الباب الرئيسى ، وظللت أنظر إلى ظهريهما وهما يغادران البيت مشيا على الأقدام ، توفيق الحكيم يعتمد عصاه والمازنى يظلع فى خطاه . وكأن مشيهما عندى ورؤيتهما أروع فى نفسى من رؤية أى رئيس وزارة مهما تكن سيارته فخمة فارهة ، ومهما يكن لحراسه من هيبة فى الهيئة أو فى الملبس .

وظل الأمر بينى وبين توفيق بك على هذا الحال ، وانتقلت لجنة التأليف والرجمة والنشر من شارع كرداسة قرب العتبة الخضراء إلى دار أنيقة وشارع فسيح بحى المنيرة ، وكان للدار حديقة متوسطة الحجم ذات ممشى يؤدى إلى الدار . وظللت على حرصى أن أحضر الندوة وكنت قد بدأت أكتب تمثيلياتى فى الإذاعة ، ولكن الإذاعة شىء وأن أتكلم بين هؤلاء شىء آخر . وكان صمتى فى دار المنيرة هو نفس صمتى الذى كان فى شارع الكرداسة . حتى كان يوم انتهت الندوة ودخلت أنا إلى الأستاذ عبد العال المدير الإدارى لمجلة الثقافة وأحسب أننى كنت أسأله عن مقالة لى كنت أرسلتها وأردت أن أطمئن إلى وصولها . وربما مكثت بضع دقائق أتحدث إلى الأستاذ عبد العال ، وخرجت وأنا واثق أن جميع من كان فى الندوة قد انصرف عن الدار . ولم يكذب حدسى إلا فى شخص واحد وجدته واقفا وقد ركن إلى عصاه فى منتصف الممشى

ناظرا إلى باب الدار مترقبا فى وضوح ظهور شخص ما . وفى صمت وإطراق حاولت أن أميل عن وقفته متخذا سبيلى أمما إلى الباب الخارجى ، ولكن توفيق بك عاجلنى :

ـ هل أنت ثروت أباظه ؟

قلت :

ـ نعم يا سعادة البك أنا هو .

قال :

ـ أنا معجب بروایاتك فى الإذاعة جدا . لدرجة أننى حين أقرأ فى البرنامج أن لك رواية أمكث فى البيت ولا أخرج .

للقارئ أن يتصور ذهولى وفرحتى فى تلك اللحظة و لم أجد شيئا أقوله إلا :

ـ أصحيح هذا الذى أسمعه . أنا يخيل لى أننى أحلم .

فقال فى بساطته المعهودة .

ـ لا واللّه فعلا .

قلت :

ـ إذن هذه الروايات تستحق أن تجمع فى كتاب . ترى أتقبل أن تكتب له المقدمة .

وعجبت لنفسى أن أقول هذا الكلام ، ولا أدرى حتى اليوم كيف وجدته على لسانى .

وقال توفيق :

ـ لا مانع .

قلت :

ـ متى أرى سعادتك ؟

قال :

- أي وقت في دار الكتب .

وأخذت رواياتي وذهبت في اليوم التالي إلى مكتب توفيق بك .

ووجدت سكرتيرة صديقي الذي كنت قد تعرفت به وأحببته كل الحب في جريدة المصري الأستاذ محمود يوسف ، وقد توثقت صلته بي بعد ، وكنت أعتبره من أقرب الناس إلى قلبي حتى اختاره اللّه إلى جواره .

دخلت إلى توفيق بك ، وقدمت إليه التمثيليات وتحدثنا عن المقدمة فلم أجد عنده تحمسا . ولكنه قدم لي كتابه العظيم الذي كان قد ظهر في هذه الأيام (فن الأدب) وقال :

- خذ هذا الكتاب حتى لا تكون أحضرت لي شيئا دون أن أقدم لك شيئا في مقابله .

وأخذت الكتاب وذهبت إلى بيتي ، وكنت قد تزوجت حديثا . فقد كان هذا اللقاء في خريف عام ١٩٥٠ . قرأت الكتاب جميعا في يوم واحد وأعجبت به كل الإعجاب وأصبحت واثقا أنه لن يكتب مقدمة لكتابي المزعوم . فقد وجدته يقول ما معناه إن كاتب التمثيلية الإذاعية ليس كاتبا بالمعنى المفهوم .

وقد ناقشت توفيق بك في هذا ولكنه قال إنك استثناء من هذه القاعدة ، فاعتبرت هذه الكلمة تحية منه تحاول أن تخفف من أثر رأيه في نفسي . ولم أحاول أن أتكلم عن المقدمة ، وعدلت عن جمع هذه التمثيليات فلم أجمعها إلا بعد ذلك بثمانية عشر عاما . وعدلت أيضا عن طلب مقدمات من أحد مطلقا . لدرجة أنني بعد ذلك بقرابة خمسة عشر

عاما كنت عند الدكتور طه حسين باشا وعند انصرافى خرج معى سكرتيره فريد شحاته يودعنى فقال لى :

ــ كنت تقول للباشا أنك انتهيت من رواية وهو كتب لك مقالات عن رواياتك السابقة ، فلماذا لا تحضر هذه الرواية ليكتب لها مقدمة ، فهو ليس مشغولا فى هذه الأيام .

فقلت :

ــ أحب أن يكتب لى عنها بعد أن تصدر إذا كانت تستحق ، ولكننى لا أريد أن أتشفع للقارئ مسبقا بمقدمة .

فقال :

ــ معك حق .

وفعلا كتب الدكتور طه باشا مقالة عن هذه الرواية وهى (ثم تشرق الشمس) ونشرت المقالة بمجلة الهلال .

توثقت صلتى بعد ذلك بتوفيق بك . وأصبحت أذهب إليه كثيرا فى دار الكتب كما كنت أجلس معه فى ندواته . فى جروبى بالقاهرة وفى بترو بالإسكندرية .

وكنا فى الإسكندرية نخرج أنا وهو وصديقه المترجم الأستاذ محمود إبراهيم الدسوقى كل أسبوع مرتين ، نتناول الغداء ثم نذهب إلى السينما ثم نتناول الشاى فى اتينيوس ، ثم أصبحنا نتناوله فى نادى السيارات بالإسكندرية . وكان كل منا يدفع حسابه . ولكنهما وجدا أن من الأيسر أن يدفع لى كل منهما جنيها واحدا وأتولى أنا الإنفاق . وكان توفيق بك بذكائه المعهود يعلم أننى أدفع فوق كل جنيه ثلاثين أو أربعين قرشا من جيبى وكان هو سعيدا غاية السعادة أن استطاع توفير هذا المبلغ الضخم ، وكذلك كنت أنا سعيدا أن أدفع هذا المبلغ وأعفى نفسى من

محاسبتهما فى آخر الرحلة التى كنت أعتبرها مرانا وتدريبا على حساب الملكين . وكثيرا ما كان يصحبنا الأستاذ نجيب محفوظ فى الذهاب إلى نادى السيارات لتناول الشاى الذى قد يمتد إلى العشاء .

ومن الطرائف التى أذكرها فى هذه الأيام ، أننا علمنا ونحن فى نادى السيارات أن والدة الأستاذ أنور أحمد توفيت ولم يكن معنا الأستاذ الدسوقى ، واتفقنا توفيق بك ونجيب بك وأنا أن نرسل برقية واحدة تحمل أسماءنا نحن الثلاثة وكانت الفكرة طبعا من تأليف توفيق الحكيم . ورأينا أن تكون الصيغة أحسن اللّه عزاءكم . وحين أرسلنا البقية مع ساعى النادى وعاد بباقى الجنيه وجدنا أن تكاليف البرقية لا تقبل القسمة على ثلاثة فقال توفيق بك :

ـ البرقية لم ترسل بعد . أوقف إرسالها ونختصرها .

فقلت :

ـ كيف نختصر من ثلاث كلمات ؟

فقال توفيق بك :

ـ بسيطة ... أليست البرقية تقول أحسن اللّه عزاءكم . .

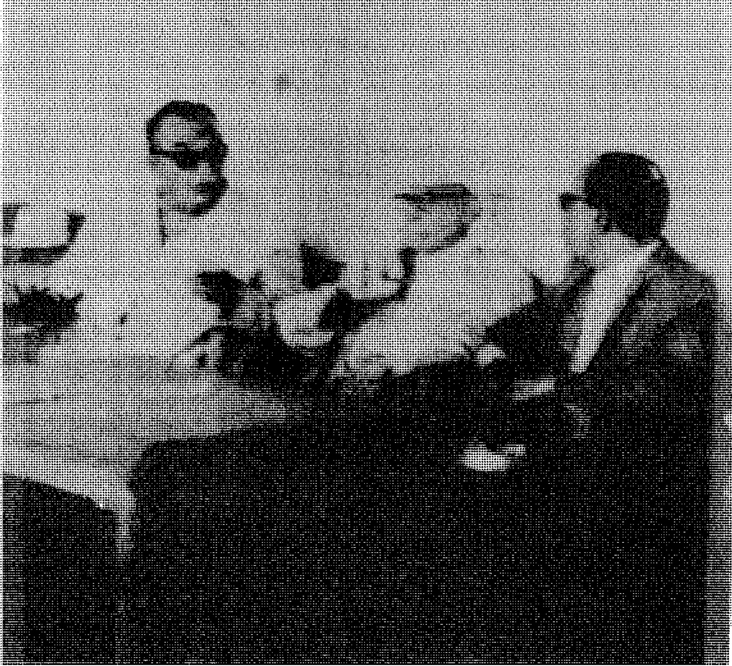
فلنقل أحسن اللّه وكفى .

ولك أن تتصور شخصا مفئودا بوفاة والدته ويجد برقية تسعى إليه لتقول أحسن اللّه . وفقط .

ومن طرائفه أيضا التى لا أنساها ، أننى كنت معه وحدى نتناول الغداء فى أحد مطاعم الإسكندرية ، وجاء النادل يسألنا عما نريده حلوا . وكان توفيق بك منهمكا فى الحديث بحرارة فقال :

ـ عندك عنب ؟

ـ نعم .



نجيب محفوظ و وتوفيق الحكيم و ثروت أباظة

ــ هات عنب .

وحتى لا أقطع عليه الحديث قلت أنا أيضا فى سرعة :

ــ وأنا الآخر .. هات لى عنب .

وإذا بالجزع يرتسم على وجه توفيق بك بقطع حديثه المتدفق ويلقف النادل قبل أن ينصرف :

ــ انتظر ... انتظر .

ونظر إلى .

ــ أنت تريد عنب ؟

قلت :

ــ نعم ... لا بأس .

فإذا هو بقول للنادل وكأنه يحتسب اللّه :

ــ طيب هات لى أنا تين بقى .

وأراد أن يكمل الحديث فلم يجد منى مستمعا وإنما قاطعته :

وأراد أن يكمل الحديث فلم يجد منى مستمعا وإنما قاطعته :

ــ ماذا جرى ... لماذا هذا ... ؟

ــ ماذا ؟

ــ لماذا امتنعت عن العنب لما طلبت أنا لنفسى عنبا ؟

ــ آه . اسمع . إياك أن تطلب طلبين من نوع واحد فى مطعم أبدا . سيحضرون لك نصيبا واحدا ويحسبونه عليك نصيبين .

ومازلت حتى اليوم أعمل بهذه النصيحة الغالية .

وفى أول يوم زرته فى مبنى الأهرام الجديد ، نادى محمدًا ساعى مكتبه وقال له :

ــ هات قهوة لثروت بك .

فإذا بمحمد يبقى مكانه ولا يتحرك ويقول :

ـ ليس عندى بن .

وإذا بتوفيق بك يضحك ويقول له :

ـ لا ... لا ... دا لأ .. ثروت بك مستثنى .. جيب له قهوة .

وفهمت طبعا أنه مصدر أوامره لساعى المكتب أن يقول دائما أنه ليس عنده بن للقهوة . وبقى أن تعرف أن ثمن فنجان القهوة فى الأهرام فى هذه الأيام كان عشرين مليما « قرشين » . وطبعا حين عينت بالأهرام أصبحت أتولى مسألة القهوة هذه كلما زرته فى مكتبه .

ومن عادات توفيق بك اللطيفة أنه إذا أراد أن يعزى أى شخص من العاملين معه فى الأهرام يقطع ورقة على حجم البرقية ويكتب فيها صيغة برقية ويرسلها مع الساعى ويعفى مصلحة البريد من متاعب إبلاغ البرقية .

ولكن كل هذا الذى أرويه يخفى الحقيقة المؤكدة وهى أن توفيق بك من أكرم الناس الذين عرفتهم فى حياتى . وأنا لا أعرف إنسانا أغدق على أسرته : المرحومة زوجته والمرحوم ولده الوحيد إسماعيل ، والسيدة الفاضلة ابنته أطال الله عمرها ما أغدقه توفيق بك على أسرته هذه .

ومن طرائفه مع المرحوم ابنه أنه طلبنى يوما فى التليفون الداخلى فى الأهرام .

قال : هل عندك أحد ؟

قلت : نعم كثيرون .

قال : كنت أريد أن أجىء إليك .

قلت : هل عندك أنت أحد ؟

قال : لا .

قلت : إذا أجىء أنا إليك .

وذهبت إليه وإذا هو يقول فى عجب :



مع الحكيم

ـ إسماعيل يريد منى خمسمائة جنيه وأنا أريد أن أعطيها له ، ولكن أريد أن أقول إننى استلفتها منك حتى يردها كما يعد .

ضحكت وقلت :

ـ تحت أمرك .

قال :

ـ سأكتب لك كمبيالة وأريها له لعله يرد المبلغ كما يقول .

وضحكت من هذه المسرحية المفككة وقلت :

ـ أنا تحت أمرك .

وأنا أقدر فى نفسى أشياء كثيرة ، أبسطها أن إسماعيل يعرف أن الصلة بين والده وبينى لا يمكن أن تكون المعاملة فيها بالكمبيالات . ولكن لم أشأ أن أبدى أى اعتراض ، وكتب الكمبيالة ووقع عليها ووضعها فى جيبه .

ومرت شهور وقال لابنه يوما :

ـ ثروت بك يريد المبلغ .

فقال إسماعيل رحمه الله فى ذكاء .

ـ يا بابا هذه أول مرة تكون فيها الكمبيالة مع المدين وليس مع الدائن .

وأدرك عميد المسرح العربى إلى أى حد كانت مسرحيته ساذجة ، ولا عجب فالجمهور فى هذه المسرحية هو ابنه الحبيب .

إن صلتى بتوفيق الحكيم هى صلة بنوة من ناحيتى وأبوة من ناحيته . وهو يشعر ببنوتى شعورى بأبوته . وهو دائما يقول أنت وزوجتك وابنك وابنتك أسرتى . أحس أن ابنتى زينب أخت لكم ، هكذا دائما أشعر بكم ، وهو يعلم أن هذا هو شعورى وتلك هى مشاعر بيتى جميعه نحوه .

* * *

الدكتور طه حسين

حين توفى أبى فى ٢٢ يناير عام ١٩٥٣ أقيمت له حفلات تأبين من أسوان إلى الإسكندرية . وأقام لـه مدنى بك حزين وأسرته مأتما فى بلدتهم العظيمة إسنا ، ووقفوا يتلقون العزاء ، وأرسلوا إلىّ فى غزالة — حيث أقمنا ثلاث ليالى المأتم — برقية يقولون فيها : أقمنا المأتم بإسنا فنعتذر عن حضور المأتم فى غزالة .

وكذلك فعل أبناء الزقازيق فى الأربعين فقد أقاموا ليلة الأربعين فى الزقازيق وأحياها الشيخ عبد الباسط عبد الصمد وكان هذا فى أول ظهوره .

وكان من الطبيعى أن يقيم له زملاؤه فى حزب الأحرار الدستوريين حفل تأبين مع أن الحزب كان قد حل ، إلا أن الرجال رجال فى حزب كانوا أو لم يكونوا .

وبدأ هيكل باشا يعد لحفل التأبين . وكنت بمنزله فإذا هو يقول فجأة :

— أنا أريد طه حسين يشترك معنا .

والتفت إلى أحد مساعديه وقال :

— اطلب لى الدكتور طه .

وطلب المساعد الدكتور ، وقال لهيكل باشا الدكتور طه على التليفون .

وكنت أقف بجانب التليفون مباشرة وقال الدكتور هيكل باشا :

— يا طه ..

وأصبت أنا بنوع من البهر .. هل يمكن أن يقول أحد للدكتور طه حسين باشا بأكمله يا طه ، وما لبثت أن تنبهت بعد لحظة أو هنيهة أن المتكلم هو الدكتور محمد حسين هيكل باشا رفيق عمره وصاحبه على الطريق من أول الطريق . وقال هيكل :

– نقيم حفل تأبين لدسوقى يوم كذا وأريدك أن تشترك فيها .

وسمعت صوت الدكتور طه قادما إلى أذن هيكل باشا ، وكانت تلك هى المرة الأولى التى أسمع فيها صوته فى التليفون . قال ، وما أعظم ما قال :

– فى هذا اليوم أنا عندى محاضرة سألقيها فى الجامعة . سألغى المحاضرة وأعتذر عنها وأحضر التأبين وأتكلم .

ملأنى التأثر بهذا الحديث القصير . وأقيم حفل التأبين . وكان من أروع حفلات التأبين التى شهدتها مصر .

وتفضل الأستاذان الكبيران العوضى الوكيل وأحمد عبد المجيد الغزإلى فجمعا فى كتاب واحد ما قيل فى حفلات التأبين التى أقيمت فى أبى كما جمعوا فى الكتاب كل الكلمات التى نشرتها الصحف فى رثائه .

وظهر الكتاب بعد حوإلى عام من وفاة أبى وظهر فى نفس الوقت كتابى ابن عمار .

ورأيت من الطبيعى أن أقصد إلى الدكتور طه حسين باشا وأقدم إليه كتاب الرثاء شكرا منا أو محاولة شكر لكلمته الرائعة التى ألقاها فى التأبين ، ولوفائه الذى جعله يلغى محاضرة له ينتظرها الآلاف ليشارك فى التأبين ، ومحاضرة طه حسين لا ينوب عنه فيها أحد ولكن التأبين يمكن أن يتم إذا هو اعتذر عن عدم الحضور فيه .

طلبت موعدا من الدكتور طه حسين وأعطانيه . وقصدت إليه فى بيته بالزمالك . فى الشارع المسمى باسمه اليوم ، وكان هذا قبيل انتقاله إلى الهرم بشهور قليلة . وصحبت معى فى زيارتى له رواية ابن عمار . وفى هذه الجلسة لم أشعر إلا بالانبهار ، فلم أكن أتصور أننى سأجلس إلى طه حسين فى حياتى .

وأذكر بعد ذلك أننى ذهبت إليه فى هذا البيت مرة أو مرتين وبدأت العلاقة على كثير من الاستحياء من جانبى . فأنا من أشد المعجبين بطه حسين عميد الأدب العربى ، وأعتبره أكبر علامة فى جيله الأدبى . وكان الدكتور طه حسين دستوريا وكان يكتب فى السياسة جريدة الحزب ، وكان على صداقة بأبى فى هذه الفترة ، وقد ذكر الدكتور طه أبى فى كتابه حديث الأربعاء . ثم ترك الدكتور طه الحزب وكتب بعض مقالات كان أبى يخالفه الرأى فيها وخاصة حين كتب عن حافظ إبراهيم ما معناه أن مدحه للملكة الإنجليز يشبه مدحه للأسرة الأباظية . فرد عليه أبى بمقال غاية فى العنف لا أريد أن أذكر منه شيئا وإن كنت معتقدا أن أبى كان على حق . ومع هذا الخلاف فإن أبى كان دائم الإعجاب بأدب طه حسين ودائم المديح له حتى لنا نحن بنيه وأهل بيته ، فأنا لم أر رجلا فى حياتى يعدل فى حكمه مثلما كان يعدل أبى . لعلك تذكر كيف كان يمتدح حسن صبرى باشا كرئيس للوزراء مع أنه هو الذى حال بينه وبين دخوله وزارة محمد محمود . ولم يختره معه فى الوزارة مع أنه كان سكرتير عام الحزب وأولى رجاله بها . ولكن هذا جميعه لم يمنعه أن يراه من أحسن رؤساء الوزارات الذين تولوا الحكم . ولم يحاول وهو البرلمانى المتمرس الخبير أن يحرجه ولو لمرة واحدة فى مجلس النواب .

كذلك كان هو . وقد كان إعجاب أبى بطه حسين وأسلوبه لا حد له مع أن الدكتور طه كان وفديا من الحزب المعارض لحزب أبى .

وكان الدكتور طه يروى لى دائما كيف أنه احتاج يوما لإطارات لسيارته أيام الحرب وكانت وزارة المواصلات التى كان أبى وزيرا لها هى المختصة باعطاء الأذون للاطارات وكان أخو الدكتور طه الشيخ أحمد

حسين قد عمل مع أبى فى وزارة الأوقاف فطلب الدكتور طه إلى أخيه أن يرجو أبى ليعطيه الاطارات التى يريدها .

ويذكر الدكتور طه فى سرور بالغ أن أبى غضب لهذا الطلب كل الغضب وطلب من الشيخ أحمد حسين أن يصله بالدكتور طه تليفونيا وقال له حين سمع صوته :

ـ هل وصل الأمر أن ترسل لى وساطة بينى وبينك .

لم أكن انتظر منك هذا أبدا .

وأرسل اليه الاذن الذى يطلبه ..

حدث ان تطاول أحدهم على أعلام الأدب فكتبت مقالة عنيفة أهاجم هذا التطاول ونشرتها فى مجلة الرسالة الجديدة التى يرأس تحريرها الأخ الاعز العظيم يوسف السباعى وفى نفس الأسبوع كنا فى اجتماع كبير بنادى القصة وحضر الاجتماع رئيس النادى الدكتور طه وأبدى إعجابه بمقالى ففرحت ولم يكن فرحى بإعجابى قدر فرحى أنه يقرأ لى .

لا أدرى لماذا كنت محرجا أن أوثق الصلة بينى وبينه أو ربما كان ذلك لشعورى أنه عملاق عظيم ومن حقه ألا يسطو أحد على وقته مهما يكن هذا إلاحد معجبا متحمسا غاية التحمس فى إعجابه .

وحدث أن كتبت روايتى هارب من الأيام وظهرت فى الأسواق أوائل عام ١٩٥٧ وكنت وأنا أكتبها يجمح بى الخيال وأسأل ... ترى هل يقدر لهذه الرواية أن يقرأها طه حسين ... وما تلبث نفسى ان تردنى فى عنف : حنانيك ... ومن أنت حتى يقرأ لك طه حسين ... لم يبق إلا أن يقرأ للبادئين من أمثالك ... إعرف قدر نفسك أيها الشاب .

ولكننى مع ذلك لم أتردد أن أذهب بالنسخة الأولى إلى بيت الدكتور طه فى الهرم وأترك الرواية مع بطاقة لى دون أن أستأذن فى الدخول ودون أن أسأل عما إذا كان الباشا موجودا أم لا .

ومرت أيام قلائل وإذا بصديق العمر أخى الذى قل أن أعرف أحدا فى وفائه ورحابة قلبه أمين يوسف غراب يأتى إلى البيت وهو يكاد يطير من الفرح .

ـ الباشا يريدك .

ـ حقا !

قال فى فرحته الغامرة :

ـ إنه معجب بهارب من الأيام ، وعاتب عليك لأنك لا تزوره .

فقلت له وقد أصبحت فرحته فى نفسى طيورا بجنحة دائمة الدف بجناحيها .

ـ وماذا تنتظر ؟... هيا بنا .

ورحب بنا الدكتور طه ترحيبا زاد من فرحتى . وبعد لحظات أخذنى فيها ذهول الفرح ، تبينت أننى سلمت دون وعى على الأستاذ الأديب عباس خضر كما سلمت على آخرين لا أذكرهم اليوم .

وقال الدكتور :

ـ لقد أعجبت بروايتك كل الإعجاب .

فقلت :

ـ إنه شرف لى أن تقرأها ، فكيف إذا أعجبت بها ؟

قال هذه الجملة التى أعتبرها أعظم وسام نلته حتى اليوم ... اليوم وأنا فى السابعة والخمسين من عمرى .. ولكن ما تزال هذه الجملة أعظم وسام نلته ، مكانه منى القلب لا ظاهر الصدر .

ــ بإخلاص ، لم يكتب فى تاريخ العربيـة عـن الريـف المصـرى مثلمـا كتبت أنت فى روايتك هارب من الأيام .

وتاهت منى الكلمات وشرقت بها ورحت أجمع الحروف لأقول :

ــ أنا لا أتحمل كل هذا يا معالى الباشا .

وصمت قليلا وبدا أنـه يفكـر كيـف يقـول مـا يريـده دون أن يفهـم الجالسون ما وراء جملته وما لبث أن قال :

ــ أنت أديب قلت ما تريد أن تقوله عن طريق الرواية .

وفهمت إشارته فقد كانت الرواية تفضح الطغيان وتدينه بعنف .

وتغيّر الحديث ومكثنا بعض الوقت وجاء الوقت الـذى ينبغـى فيـه أن نستأذن للانصراف فإذا الدكتور يقول :

ــ سأشدك من أذنـك لا تظـن أنـك سـتقرأ لى مديحـا فقـط توقـع أن أشدك من أذنك .

فقلت وقد زادت سعادتى :

ــ ستجدنى أسعد الناس أن تشد يدك أذنى .

وخرجت . وما هذا الذى حدث . إن الحيـاء يمنعنـى أن أذكـرك مـن هؤلاء ، فى تاريخ الأدب الذين كتبوا عن الريف المصرى . وسيشـد أذنـى . إذن سيكتب عن هارب من الأيام . يكتب عن أول رواية من خلقى فابن عمار لم تكن لتكتب لولا التاريخ أما هارب من الأيام فروايتى الأولى .

ذلك واللّه ما لم تستطيع أن تسـمو لـه أحلامـى . وأنـى اليـوم أذكـر كلمة قالها عميد الحقد الأدبى الدكتور لويس عـوض وكنـا جلوسـا فـى الحرافيش فاذا هو فجأة يقول لى على غير انتظار أو توقـع وبعـد سـنوات من ظهور هارب من الأيام كانت ظهرت لى فيهـا عـدة روايـات أخـرى قال الدكتور عميد الحقد .

ـ أتعرف لماذا لا نكتب نحن عنك .

وأدركت أن نحن هذه تعنى الشيوعيين طبعا وطبعاً أيقنا وأنا أتوقع أن يكتبوا عنى طبعا أيضا وإنما أحببت أن أعرف بماذا يطمئنون ضمائرهم الأدبية فقلت :

ـ لا ... لا أعرف .

قال في وقاحة جديرة به :

ـ لأن طه حسين كتب عن روايتك الأولى . ماذا هل ولدت عملاقا مثل التليفزيون .

وقلت فى بساطة :

ـ على كل حال ، إن كتابة طه حسين عنى تغنينى عن كل نقاد العالم .

ونقلت الحديث إلى غير ما خاض فيه حتى لا أفسد السمر على الحرافيش فى بيت أخينا العزيز الراحل محمد عفيفى .

مرت أيام قليلة بعد خروجى من عند الدكتور طه حسين ، وطلبتنى جريدة الجمهورية تسألنى أن أرسل لها صورة لى لتنشر مع مقالة الدكتور طه .

و لم أنم تلك الليلة ، وفى الفجر كنت أقرأ الجمهورية ووجدت المقالة فوق ما أتوقع . وجدت الدكتور يأخذ على مآخذ فهمت ما يريده منها وفى العاشرة من الصباح كنت على باب منزله لأول مرة أزوره على غير موعد وقلت :

ـ أنا فعلا لا أعرف ماذا أقول .

قال :

ـ اللّه إذن أنت لم تزعل .

قلت :

_ فمتى أفرح فى حياتى إذا زعلت اليوم .

قال :

_ قل لى ماذا تقصد بروايتك .

قلت :

_ معاليك قلت أنت أديب قال ما ...

ولم يجعلنى أكمل وقاطعنى .

_ دعك مما قلت أنا ، وقل لى أنت ماذا تقصد ؟

قلت فى بساطة وصراحة :

_ أنا أصف عهد الطغيان الذى نعيش فيه .

فإذا الرجل يقول فى أبوة حانية .

_ هيه ... أنا فهمت هذا .

فقلت :

_ وإذا لم تفهم أنت فمن ... وأنا فهمت أنك هاجمت بعض أفكار من الرواية لتحمينى .

قال :

_ برافو . نعم هذا ما قصدت إليه حتى إذا سألك أحد تقول سأل طه حسين فهو يقول غير هذا .. إنما أسمع ... أنا أستحلفك بحياتى إذا كنت تحبنى ، وأستحلفك بأبيك الذى أعرف إنك تحبه وتقدره ألا تقول هذا الذى قلته لى لأى إنسان ولا حتى لزوجتك . هؤلاء قوم مجرمون والله يعلم ماذا يصنعون بك إذا فهموا هذا الفهم .



مــع العميد . .

كان برنامجى أن أسافر إلى غزالة فى هذا اليوم ، فخرجت إلى غزالة وكتبت له خطابا قلت له فيه أن كتابتك عنى أهم حدث فى حياتى ، ولكننى ربما كنت أصل إليها بعد سنوات إذا فاتنى أن أصل اليها اليوم .

ولم أكن أتصور أننى سألقى سعادة أكبر من أن تكتب أنت عنى ، ولكنك كشأنك تسمو إلى مدارج يعجز مثلى أن يتصور أن إنسانا يصل إليها .

إنه لشىء عظيم أن ينقدنى ظاهرة من الظواهر الكونية فى التاريخ الأدبى . ولكن الأعظم منه أن أجد فيك الأب الذى فقدته . وقد يتاح للإنسان من أمثالى أن يصلوا إلى النجاح الأدبى . ولكن هيهات أن يتاح للإنسان أن يجد أبا بعد أن يفقد أباه .

وتوثقت الصلة بينى وبين الدكتور طه حسين ، وكتب لى بعد ذلك عن رواياتى « قصر النيل » و« ثم تشرق الشمس » و« لقاء هناك » .

وأذكر أننى كنت جالسا معه مرة فقلت له إن مجلة كذا كتبت عن معاليك مقالة ، أقرأتها ؟

فقال :

ــ لا ، ماذا قالت ؟

قلت :

ــ تمدح معاليك .

قال :

ــ من أى ناحية ؟

قلت :

ــ تتكلم عن جملتك المشهورة : العلم كالماء والهواء .

فقال :

ـ هيه .

ثم صمت قليلا وقال :

ـ والله يا ثروت لا أعرف إن كنت قد أصبت أم أخطأت بهذا الشعار .

وكانت مساوئ التعليم المتسع دون إعداد علمي له قد بدأت تظهر ، فآثرت الصمت ، وكنت إذا تأخرت فى الذهاب إليه يبادرنى قبل أن يسلم عليَّ ببيتين أصبحت أحبهما غاية الحب :

إن كنت أزمعت على هجرنا   من غير ما ذنب فصبر جميل
وإن تبدلت بنا غيرنا   فحسبنا اللّه ونعم الوكيل

كان طه حسين من أكرم الناس الذين عرفتهم ... طالما شهدته يعطى الفقراء ، وكان كثيرون من مكفوفى البصر يقصدون إليه . ولا أنسى أول مرة زاره أحدهم فى وجودى ، ومد كل منهما يده للآخر ولكن اليدين لم يعرفا طريقهما فى الظلام الدامس الذى يعانيه صاحب كل منهما ، وبسرعة تقدم فريد شحاتة وهدى اليدين إلى الطريق وتصافحا . وتأثرت أنا وطفرت الدموع إلى عينى وحمدت اللّه أن الرجلين لم يريا دموعى التى حاولت أن أخفيها عن فريد أيضا .

ذهبت يوما لزيارة الدكتور أنا والصديق أمين يوسف غراب وسأل الباشا أمين :

ـ ماذا تكتب الآن يا أمين ؟

وكان أمين فى الطريق روى لى موضوع قصة يكتبها ، وقلت له إن الفكرة تتعارض مع الشريعة فسارعت أنا بإجابة الدكتور طه :

ـ يكتب قصة تتعارض مع الشريعة .

ورويت له المسألة الشرعية فقال :

ــ أظنك على حق . يا فريد هات المصحف .

وأحضر فريد المصحف وقال الدكتور :

ــ افتح على سورة النساء . اقرأ الآية التى أولها كذا . اقرأ بعدها بآيتين . فإذا هى الآية التى تحمل القاعدة الشرعية موضع النقاش . وتلك ذاكرة لا تتأتى إلا لطه حسين . وقد كان رحمه الله لا يسمع فى الإذاعة إلا المصحف المرتل . ولكن المشايخ القراء إذا سألتهم فإنهم يقرأون السورة كلها ليصلوا إلى الشاهد الذى تريد .

أجريت عملية جراحية للدكتور طه تدهورت صحته بعدها فأصبح يمشى بصعوبة بالغة ، ولكن الرجل الذى صارع إظلام البصر فصرعه ، استطاع أن يصارع قيود المسير فيصرعها . فهو حريص دائما أن يرأس جلسات مجمع اللغة العربية الذى كان يسميه الأكاديمى أو الأكاديمية ، كما كان يحرص على إعطاء المحاضرات . وظل كذلك إلى قبيل وفاته بسنتين . وفى هذه السنة تدهورت صحته بصورة مفاجئة ولكنه كان يصر أن يرافق السيدة زوجته إلى فرنسا كل عام .

طلبته يوما فى التليفون وكان فريد قد تركه . ورد علىّ سكرتيره قائلا الباشا سيسافر الآن إلى الإسكندرية ، ويريد أن يراك فورا ، وبعد دقائق كنت عنده وصعدت إليه فى حجرته وكان مستلقيا فى فراشه . وجلست إلى جانبه ، وحاول أن يخرج يده ليصافحنى فلاحظت أنه يبذل جهدا كبيرا ليحركها فأدخلت يدى تحت الغطاء وأبقيت يده حيث هى حتى لا أجهده وانتظرت أن يقول لى شيئا يبرر قول السكرتير لى إنه يريدنى ولكنه لم يقل إلا ...

ــ أنا متعب جدا يا ثروت . أنا متعب جدا .

وعجبت أنه مع هذا التعب سيسافر من فوره إلى الإسكندرية فى طريقه إلى فرنسا .

انصرفت وقلبى يرتجف خشية ألا أراه بعد ذلك . ولكنه عاد وقضى العام فى القاهرة . وفى يوم طلبنى سكرتيره وأخبرنى أن الباشا يريدنى ، فذهبت فإذا هو يريدنى ليهدى إلىّ كتابه الأخير الجزء الثالث من الأيام. وليأذن لى القارئ أن أذكر صيغة الإهداء فهى وسام آخر أضعه فى القلب منى مع وسامه الأول : إلى الأستاذ فلان أوفى الأصدقاء وأبرع القصاص .

وفى صيف عام ٧٣ سافر الدكتور طه إلى فرنسا .

وفى أكتوبر كانت حربنا المنتصرة ، وكنت فى البيت ولا أدرى لماذا قفز إلى ذهنى أن أسأل عن موعد مجىء الدكتور طه ، وطلبت الرقم وأجاب السكرتير فإذا هو يقول فى دهشة بالغة .

ـ غير معقول ... لا يمكن .

قلت له :

ـ ماذا ؟

ـ الدكتور فى هذه اللحظة كان يقول لى أن اطلب لى ثروت لأعزيه فى وفاة عزيز باشا .

تفضل الدكتور سيكلمك :

وتكلم الباشا وحيانى وعزانى وسألته :

ـ متى شرفت معاليك ؟

فإذا هو يقول :

ـ الآن :

وتعجبت أن أطلبه ساعة وصوله وسألته عن صحته فقال :

ـ أنا متعب جدا .. متعب جدا . وأريد أن أراك . سأطلبك بعد يوم أو يومين لأراك .

مات الدكتور طه ولم يقدر لى أن أراه . فقد مات بعد يومين . وسارعت إلى منزله . ولقينى سكرتيره والدموع فى عينيه وهو يقول لى :

ـ لقد قرأ الدكتور روايتك الأخيرة « جذور فى الهواء » أربع مرات . وكنت كلما قلت له إننا قرأناها يقول نعم أعرف ولكن أريد أن أقرأها مرة أخرى .

وغامت عيناى بالدموع .

ودخلت السيدة زوجته حجرة مكتبه حيث كنت جالسا مع بعض المعزين ، وإذا بالسيدة الجليلة تحتضننى فى حنان أم ، وتربت كتفى وتبكى على كتفى وهى تقول بالفرنسية : كان يحبك جدا يا مسيو أباظة كان يحبك جدا .

وهى لا تدرى أن حبه لى مهما يكن شأنه هو بعض حبى له .

وحسب هذا الحب عمقا أننى وأنا رجل صناعتى الكلام عاجز كل العجز أن أصف بعضا منه .

* * *

حمام والديب وأحمد عبد الغفار باشا

لا أذكر متى عرفت مصطفى حمام . ولكن المؤكد أننى عرفته ونحن بعد فى بيت الملك الناصر ، وقد تركنا هذا البيت وأنا بين الحادية والثانية عشرة . والحقيقة أننى لم أعرف فى حياتى شخصا قادرا على أن يجعل الجلسة ممتعة شائقة مثل مصطفى حمام .

لقد كان كل جالس يجد عنده ما يشتهى . فهو راوية خيارة للشعر ، يحفظ أجمله وأرفعه وأكثره رقة ، وهو راوية لا مثيل له للزجل . وهو قبل شاعر إذا شاء ارتجل الشعر ارتجالا وتحسبه جهد فى صنعه كل الجهد ، فأنت تجد فى شعره جمال السبك وحلاوة اللفظ وتماسك المعانى وتدافعها . ومهما أحاول فإننى لن أستطيع أن أنقل إليك المتعة الرائعة التى يفيضها حمام على أى مجلس هو فيه . يؤيده فى ذلك ذكاء بارع فى اختيار ما يقال فى كل مجلس بحاسة لا تخطئ ، يختار حديثه فإذا هو يجتذب الجالسين كفعل الساحر الخبير .

وأشهد أننى لم أسمع حمام عمرى يذم إنسانا أو ينتقص منه . وهو يملك لسانا عذبا يرضى به كل متحدث إليه ، ولعل من أطرف المواقف التى رأيته فيها يوم طلب أبى من القاهرة ، وكنا نحن مع أبى فى بلدتنا غزالة . وأخبر أبى أنه قادم إلى غزالة ، وأراد أبى أن يفاجئه ، فأمر فتجمعت من رجال البلدة مظاهرة ضخمة فى مقدمتها طبال القرية وزمارها ، وأعدوا للقادم حصانا صافنا أصيلا ، وذهبت أنا بالمظاهرة ننتظر حمام على القطار فى محطة أبو الأخضر التى تبعد عن غزالة كيلو مترين . ووقف القطار وارتفع الهتاف يحيا الأستاذ حمام ، وذهل الرجل فقد كان يتوقع أن يكون السائق فى انتظاره وإن جمح الخيال فلأكن أنا مع السائق . أما مظاهرة وطبل وزمر وحصان وأنا فهذا فوق ما كان

يتخيل . ونزل مبهورا وركب الحصان ولم يكن قد ركب حصانا فى حياته ، ويشاء حظه أن يكون الحصان عربيا راقصا فراح يوقع بحوافره مع موسيقى الطبل والمزمار . وكاد يغمى على حمام واستحلفنى أن يركب حمارا وإلا مات من الخوف فى وسط الطريق . ورحمته وأركبته حمارا وجدناه بالصدفة فى طريقنا ، ووصل الموكب والزعيم القادم يركب حمارا واستقبله الشاعر الكبير ابن غزاله أحمد عبد المجيد الغزالى بقصيدة عصماء كان مطلعها :

أتيت فمرحبا بك يا حمام   وفى كنف العلا يحلو المقام

وقضى معنا فى غزالة أياما لا تنسى .

أراد حمام أن يقدم عبد الحميد الديب إلى أبى ، فجاء به وألقى عبد الحميد أبياتا لأبى رائعة أذكر منها :

جابر المحروم وهاب المنن   جبراللّه به صدع الوطن

أنت إبراهيم ثانى نابغ   فجمع الكفار فى حطم الوثن

وكان هذا اللقاء فى أوائل الأربعينات ، وكان أبى قد خرج منتصرا على الوفد فى المعركة الانتخابية الشرسة التى رويت لك أنباءها ، والتى جرح فيها عمى فكرى أباظة . ولف أبى خمسة جنيهات فى هيئة سيجارة وقدمها إلى عبد الحميد الديب . وخرج الديب وحمام . وعاد حمام إلينا فى اليوم التالى ليخبرنا أن الديب كاد يجن من الفرح وراح يقول لحمام:

ـ لماذا لم تعرفنى بهذا الرجل من زمان . خمسة جنيهات مرة واحدة . أنا لا أراها إلا فى الأحلام .

وبعد أيام عاد إلينا حمام وقال لأبى : اسمع يا معالى الباشا الشعر الجديد الذى قاله الديب فى الأباظية .

وسأله أبى :

ــ ماذا قال ؟

وقال حمام :

قال :

أبلــغ أباظة عنى أنهم ورثوا   مالا ولم يرثوا دينا ولا خلقـا

واندهش أبى وراح يضحك لهذا الانقلاب ، وسأل حمام عن سره فقال حمام :

ــ سألته :

وقال أبى :

ــ فماذا قال ؟

قال حمام :

ــ قال خمسة جنيهات إيه يا أستاذ ، هو باع القطن بكام السنه دى.

وضحك أبى ولكنه قال فى ذكاء السياسى المحنك .

ــ المسكين وقع فريسة لخبيث أراده أن يهجونى حتى يقطع عنه ما أعطيه .

وصاح حمام :

ــ أطال اللّه عمرك يا باشا . هذا فعلا ما حدث ، لقد أغراه بك كامل الشناوى .

ولم يغضب أبى من عبد الحميد الديب وظل يصله .

وحدث بعد ذلك بسنوات أن ذهب عبد الحميد الديب إلى معالى المرحوم أحمد باشا عبد الغفار ، فوجد الباشا فى الطابق الأعلى ، فأُرسل إليه أبياتا يمتدحه بها فأرسل له أحمد باشا خمسين قرشا فغضب عبد الحميد الديب وأعاد الخمسين قرشا ومعها هذه الأبيات :

كسـرت أبا عثمـان قلبى وخاطرى
وقد خلت منك العطف فى العيش جابرى
وما جئـت أستجديك خمسـين لغْنَة
ولا مـر هـذا الميل يوما بخاطـرى
ففـى كل غفـار خـلال ذميمـة
وأخـلاق نـذل ساقط الأصل داعـر
أباظـة أسمـى منكمـو فى نجارهـا
وأنـدى أكفـا فى صـلات العشائـر

وأذكر أننى كنت فى صباح ذلك اليوم واقفا بجانب أبى وهو يحلق ذقنه فى حجرته على عادته ، و لم يكن عندنا أى فكرة طبعا عما حدث لأحمد باشا ، وإذا بالتليفون يضرب ويخرج إلى أذنى صوت أحمد باشا عنيفا ودون تحية الصباح ودون أن يسألنى من أنا ، فقد كان يعرف صوتى من كثرة ما أجبته فى التليفون .

ــ فين أبوك .

وأعطيت السماعة لأبى وظل صوت أحمد باشا يصل إلى أذنى وكأننى أضع السماعة على أذنى .

ــ إنت باعت لى الواد بتاعك يشتمنى على الصبح .

وعجب أبى وقال :

ــ واد مين .

وروى أحمد باشا لأبى القصة ، ولم يكن أبى محتاجا أن يؤكد له أنه لا يعرف شيئا عن هذه الحكاية ، ولكن أحمد باشا قال له :

ــ دى أحرة تدليعك للعيال الشعرا بتوعك دول .

وراح أبى بعد أن وضع السماعة يضحك ويضرب كفا بكف وهو يقول لنا فى مرح ضاحك .

- بس أنا مالى ... ما داخلى أنا ؟

ورحنا نحن أيضا نضحك مما فعله الشاعر عبد الحميد . وبما أننى رويت عنه فإننى أحب أن أثبت هنا ما وصلت إليه فى شأنه . لقد كان هذا الشاعر يستعذب الفقر والصعلكة . وكان يخشى ان يجرى المال فى يده فلا يقول شعرا . وهو فعلا لا يستطيع ان يجيد الا فى شكوى الزمن ،اسمعه يقول :

بين النجوم أناس قد رفعتهموا

إلى السماء فسدوا باب أرزاقى

ومن حبته الطلا أخلاق نشوتها

عدا على الكأس طورا أو على الساقى

وقد اتصلت أسبابى بالرجل أحمد باشا عبد الغفار بعد وفاة أبى . وكان هذا طبيعيا . ففى حياة أبى كانت صلته مباشرة ولم أكن أتصور أن أحمد باشا من أحسن الذين يقرأون الأدب وله ذوق رفيع وحس رقيق . وكان فى جلسته متحدثا لبقاوكان كأهلنا فى القرى يروى الكثير من الوقائع ، ومما رواه أن أحد وزراء الداخلية استدعاه فى أحد الأيام وهو بعد شاب فى أول حياته السياسية ، وكان يريد أن يتعرف رايه فى المرشحين بالمنوفية لمجلس النواب . وحين استقرت به الجلسة جاء سكرتير الوزير ليخبره أن أحد الباشوات الأثرياء بالخارج .

وقال الوزير أدخله ، ودخل الباشا ثم التفت الوزير لأحمد عبد الغفار وقال :

- عن إذنك يا أحمد بك .

ونظر إليه أحمد عبد الغفار الفلاح الأصيل ذو الإباء والكرامة وقال :

ـ تقصد معاليك أن أخرج وأنتظر لتقابل معاليك سعادة الباشا حتى إذا انتهى سعادته من حديثه أدخل أنا ؟

فقال وزير الداخلية :

ـ دا إذا سمحت .

فقال أحمد باشا فى صراحة الرجال :

ـ لا يا أخى ما اسمحش أبدا .. أنت مستدعينى تسألنى عن ترشيحات المنوفية كلها . الباشا القاعد قدامك هذا لورشح نفسه فى بيته لا يستطيع أن يحصل على صوته هو .

وخرج الباشا وأكمل أحمد عبد الغفار حديثه مع الوزير .

وأذكر أننى قلت لأحمد باشا يوم روى لنا هذه الحكاية .

ـ ألم تكن قاسيا على الباشا دون ذنب له .

وضحك أحمد باشا وقال :

ـ لك حق . ولكن كنت أرد للباشا إساءة وجهها إلىّ قبل ذلك . فقد تجاهلنى مرتين دون مناسبة فأحببت أن أعرفه مقامه .

وكان أحمد باشا عبد الغفار من أكرم الناس الذين عرفتهم فى حياتى، وكان كثيرا ما يدّعو أصدقاءه إلى الغداء أو العشاء فى كلوب محمد على ، وكان فى هذه الدعوات يغدق بغير حساب .

ولكن الأهم من ذلك أنه كان يحسن إلى المحتاجين فى كرم لا مثيل له . فهو موطأ الأكناف ، يوسع على الناس بكل ما يستطيع من جهد . وكان إذا عرف أن صديقا له فى ضائقة سارع إليه دون أن يندبه أحد إلى هذا ، وإنما يتبرع بالمبادرة ويسعد غاية السعادة بأن يعطى ويحس بالرضى غاية الرضى أن الظروف أتاحت له أن يقف إلى جانب صديق

مكروب . وكان أحمد عبد الغفار يقدر الرجولة ويعجب بها غاية الإعجاب .

وكان أحمد باشا معروفا بالصوت المرتفع الجهير ، ومن أطرف النكات التى تروى عنه أنه حين كان وزيرا للزراعة ، جاء أحد أصدقائه ليقابله فاستمهله السكرتير قائلا له إن الباشا مشغول . وجلس الضيف وإذا بصوت الباشا يملأ أجواء حجرة السكرتير ، وشعر السكرتير بالخجل فأراد أن يعتذر للضيف فقال :

ـ لا مؤاخذة يا سعادة البك أصل الباشا يكلم تلا . وتلا هى قرية الباشا وفيها زراعته التى كانت معروفة فى مصر جميعا أنها زراعة نموذجية لخبرة الباشا الفائقة بفلاحة الأرض . وتلا هذه قرية من المنوفية.

وإذا بالضيف يقول فى سرعة خاطر رائعة .

ـ ولماذا لا تقولون للباشا يكلم تلا بالتليفون بدلا من هذا الزعيق .

رحم اللّه أحمد عبد الغفار باشا الذى عاش رجلا ومات رجلا على رغم كل ما أحاطه به الدهر فى أخريات أيامه من تحديات واجهها فى شموخ العظماء وفى كبرياء الكرام .

* * *

الدكتور محمد حسين هيكل باشا

كنت كما أخبرتك فى رأس البر حين ظهرت نتيجت الثقافة . ونلت شهادة الثقافة وأصبحت طالبا بالتوجيهية . وأرحت عن كاهلى مشقة انتظار النتيجة ، وانطلقت أقرأ ما كنت أهفو إلى قراءته من الكتب . وما كان انتظار النتيجة ، مانعى عن القراءة ، ولكن ما أبعد الفارق بين قراءة مفزعة يملؤها رعب انتظار النتيجة ، وقراءة هانئة خالية من الخوف . وكنت قرأت حياة محمد قبل هذا بسنوات ، ولكن طاب لى أن أعيد قراءتها . وكنا فى رمضان فكنت أنزل إلى البحر حتى الساعة الواحدة ظهرا ثم أعود إلى العشة وألبس ملابسى العادية وأَجُرُّ كرسيا ومظلة بحر وكتاب حياة محمد . ولا أشعر بالحياة حتى تغرب الشمس وأضيق بغروبها كل ضيق . وربما كانت هذه الأيام الوحيدة فى حياتى التى كنت أرجو فيها وأنا صائم ألا يأتى الغروب .

وكان المرحوم محمد حسين هيكل باشا يصطاف فى رأس البر معنا ، فقد كان الجميع يصطافون فى رأس البر فى زمان الحرب العالمية الثانية التى أثرت أعظم الأثر فى الدول المشتركة فيها وغير المشتركة .

وبعد الإفطار كنت أذهب مع أبى ليجلس مع أصدقائه فى فندق كورتيل على النيل . وسألنى هيكل باشا .

- ماذا تقرأ الآن يا ثروت ؟

فأجابه أبى .

- يقرأ حياة محمد للمرة الثانية . وأنا أنصحه بأن يذاكر للبكالوريا التى سيمتحن فيها العام القادم .

وقال هيكل باشا :

ـ اتركه يا دسوقى يقرأ ما يريد ، فكتب المدرسة سيقرؤها على أى حال ، ولكن ربما لا يجد فرصة أخرى ليقرأ ما يقرأ الآن .

كنت فى هذه الجلسات أجلس صامتا كشأنى فى جلسات لجنة التأليف والترجمة والنشر . وكان جلوسى غالبا بجانب هيكل باشا .

مال يوما علىّ وقال :

ـ هل فرغت من حياة محمد ؟

قلت :

ـ نعم .. وأحسب أننى سأعود إليه مرات بعد ذلك .

وفعلا عدت وكتبت عنه تمثيليات إذاعية أذاعتها محطات العالم العربى كله بعد ذلك بسنوات قليلة ، وعاد هيكل باشا يسألنى :

ـ وماذا تقرأ الآن ؟

قلت :

ـ أقرأ الشوقيات .

قال :

ـ ما آخر قصيدة قرأتها ؟

قلت :

ـ مصائر الأيام .

قال :

ـ أتحفظ منها شيئا ؟

قلت فى خجل :

ـ نعم .

قال :

ـ قل ..

فبدأت أقول :

ألا حبـــذا صحبـــة المكتب   وأحبـــب بأيامـــــه أحبـــب

ومضيت فرويت له بضعة أبيات وسكت مقدرا أنه ربما يريد أن يعود إلى مشاركة أصدقائه حديثهم ، ولكنه قال فى ذكاء وإدراك لما أفكر فيه .

ـ أتحفظ بعد هذا ؟

قلت : نعم .

قال :

ـ أكمل ..

وأكملت ، ظللت أسكت ويطلب منى أن أواصل حتى رويت له القصيدة كلها وكنت حفظتها عن ظهر قلب .

وأصبح هيكل باشا يصحبنى بعد تلك الجلسة فى مشيته الطويلة حول رأس البر ، وما كنت وما أنا حتى اليوم من هواة المشى ، ولكن إذا كان المشى فى صحبة هذا العلامة من علامات التاريخ الوطنى والسياسى فلتذهب هواياتى كلها إلى الجحيم .

ومن الأحاديث التى أذكرها فى هذه المشيات أننى قلت له يوما :

ـ لا بد أن شوقى كان شجاعا كل الشجاعة يا معالى الباشا .

قال :

ـ لماذا ؟

قلت :

ـ ألم يشتم الأمير حسين الذى أصبح السلطان حسين كامل حين ذهب إلى حفلة توديع كرومر بقوله :

شهد الحسين عليه لعن أصوله   وتصدر الأعمى بها تطفيلا

فقال هيكل باشا :

- للأسف لم يكن شوقى كما كنا نود من الشجاعة .

فالأمير حسين فى ذلك الحين كان مغضوبا عليه من السراى .

وقد كان شوقى يمدح من فى الحكم ، ولا يعارض إلا إذا كان واثقا أن شرا لن يناله .

قلت :

- عجيبة .

قال :

- تصور أنه بدأ يكتب قصيدة فى مدح محمد باشا محمود وهو رئيس وزارة ١٩٢٨ وسقطت الوزارة فلم يكمل القصيدة .

- أتذكر معاليك شيئا من هذه القصيدة ؟

قال أذكر البيتين اللذين قالهما .. قال :

هات الأمانة يا محمد هاتها راعى الأمانة أنت وابن رعاتها

أنا لا أرى صدأ الحديد على يد ردت إلى الأوطان حرياتها

وكان بهذا يرفع عن محمد باشا تهمة صاحب اليد الحديدية التى أطلقها عليه خصومه مستغلين فرصة كلمة قالها أنه سيقضى على الفوضى بيد من حديد .

قلت لهيكل باشا :

- ومع ذلك فمعاليك كتبت له مقدمة رائعة للجزء الأول من ديوانه.

فقال :

- وإذا طلب منى أن أكتب له مقدمة فى أى وقت ما تأخرت . إننا يجب أن نفصل بين الشاعر والسياسى . وشوقى الشاعر هو أعظم شعراء العربية على الإطلاق .

وفى يوم كنا فى القاهرة ، وكان هيكل باشا عندنا فى البيت يشرب فنجان قهوة واقفا لا أدرى لماذا ، ربما لمجرد أنه لم يكن يرغب فى

الجلوس. وقرأت أنا فى مجلة أن راقصة تقاضت مبلغا كبيرا من المال فى مقابل رقصة لها ، وأحببت أن أفاكه الباشا فقلت :

ـ أرأيت هذا الخبر يا معالى الباشا ... راقصة تتقاضى كل هذا المبلغ في رقصة . كم تأخذ معاليك فى كتاب بأكمله ؟

فأجاب فى جدية :

ـ يا بنى لا ... ما هكذا يكون الحساب . هؤلاء الراقصات ذقن الجوع والإذلال فترات طويلة من حياتهن ، أما نحن فقد عشنا عمرنا كراما على أنفسنا وعلى الناس والحمد لله .

وبعد الثورة استدعته محكمة ثورية ليشهد شهادة تكون ذات أثر فى إدانة فؤاد سراج الدين ، فإذا هو وهو رئيس الحزب الذى يعتبر المعارض الأول لحزب الوفد حزب الأحرار الدستوريين يعلن فى شجاعة منقطعة النظير أن منابر المجالس النيابية لم تشهد نائبا ولا شيخا فى ذكاء فؤاد سراج الدين وبراعته إلا فى النادر من الرجال . وأعجبت بما قاله وقصدت إليه أهنيه فقال فى كبرياء .

ـ وهل كنت تنتظر منى غير ذلك . أ أحارب خصما وهو فى مأزق ؟

وهو محق ؛ فقد ذكرت له لحظة ذاك يوم تخطاه الملك فى رئاسة الوزراء وعين إبراهيم باشا عبد الهادى وأراد الملك أن يعتذر إليه فاستدعاه وقال له فى تلطف .

ـ ستأتى إليك رئاسة الوزارة يا باشا لا شك .

فإذا هيكل العملاق يقول له :

ـ يا جلالة الملك ، أنا حين أجلس إلى مكتبى وأكتب تصغر أمام عينى كل كراسى الحكم .

وقد أوشك الرجل أن يقول حتى كرسى عرشك .

ولهيكل باشا حديث معى لا أتصور أن أتحدث عنه ولا أذكره . فقد توفى خالى سعد الدين أكبر أخوالى وأكثرهم حنوا علىَّ وأقمنا المأتم بالزقازيق .

وكنت أنتظر نتيجة التوجيهية أو الثانوية العامة كما يسمونها الآن فرأيت أن أعجل بالسفر إلى مصر لأتلقف أخبار النتيجة ، وكان أبى سيبيتُ فى غزالة ، ودار الحديث أمام هيكل باشا فقال فى بساطة :

ـ تعال معى .. أنا فى السيارة وحدى مع خالتك عزيزة .

وسارعت بالقبول .

وفى السيارة سألنى :

ـ تنتظر نتيجة التوجيهية ؟

قلت : نعم .

قال :

ـ وعلام تنوى ؟

قلت :

ـ الحقوق ، ولو أننى أفكر أحيانا فى الآداب .

فقال :

ـ إياك ، إن الذى ستحصله من كلية الحقوق لا يمكن أن تحصله إلا من كلية الحقوق ، أما الآداب فتستطيع أن تدرس علومها دون كلية . وهأنذا أمامك دراستى حقوق والماجستير والدكتوراه حقوق ومع ذلك يقولون عنى إنى أديب .

ولم أعد أفكر فى كلية الآداب بعد ذلك ، وتذكرت أن هذا الرجل الجالس أمامى نال الحقوق واللغة الأساسية الإنجليزية وكذلك الماجستير ، ثم نال الدكتوراه باللغة الفرنسية .. إنه ظاهرة كونية هذا الرجل .



يتشاوران في اجتماع الأحرار
هيكل باشا ودسوقي باشا

فى هذا اليوم ذهبت لأهنئه بشهادته ذات الرفعة والإباء . قال لى سأقص عليك قصة كلما رويتها أعجبت بأبطالها وحزنت لأنهم كانوا مع ذلك غزاة محتلين . يراعون العدل مع الأفراد ولا يراعون العدل مع الأمم . فى يوم من الأيام جاءنى استدعاء إلى محكمة الإنجليز العسكرية . وحمل الاستدعاء ضابطان بريطانيان صحبانى فى سيارة محترمة إلى المحكمة . وجلست فى مقاعد المحامين حتى جاء دور القضية التى طلبت من أجلها فنودى اسمى ومثلت أمام المحكمة . وأمسك القاضى بجريدة السياسة وسألنى هل أنت رئيس تحرير هذه الجريدة فقلت : نعم . قال أهذا يصح ؟ وأشار إلى مقالة قرأت عنوانها فعرفتها كانت مقالة يهاجم فيها د . طه حسين الأستاذ محمد أبو شادى وكان الإنجليز يعتقلونه عند ظهور المقالة فتعجبت . ما هذا الذى لا يصح ؟ إننا نهاجم رجلا أنتم تعتقلونه ، ماذا فى هذا ؟ فقال القاضى : فى هذا أننا نعتقله . ألا تدرى أننا حين نعتقله تصبح كرامته أمانة فى أيدينا . كيف تهاجمون شخصا لا يملك الرد عليكم ؟ فقلت فى سرعة : من هذه الناحية أنتم محقون ، وأعدك ألا يتكرر هذا . فقال : شكرا وانصرفت وأنا أتعجب كيف يكون للإنسان عندهم هذه القدسية وتجدهم فى معاملتهم للدول قراصنة بلا خلق ولا ضمير على الإطلاق .

توثقت صلتى بالمرحوم هيكل باشا ، يزيدها أنها كانت علاقة عائلية ؛ فوالدتى صديقة زوجته ، وابناه وبناته نعتبرهم طول عمرنا فى بيتنا إخوة لنا .

وشاء القدر أن يلحق بالرفيق الأعلى عام ١٩٥٧ ، وأردت أنا والأستاذ الشناوى أن نقيم له حفل تأبين ، وأخبرنا بذلك أحمد باشا عبد الغفار فدعانا للقائه مع كبار رجال الحزب فى نادى محمد على ، ولم

نكن والشناوى أعضاء فانتقل إلينا الباشا وأصدقاؤه فى غرفة الضيوف وعرضنا رأينا ، وإذا بوزير سابق من وزراء الحزب أكن له كل إكبار وإجلال يقول :

ـ والله أنا أرى الوقت ليس مناسبا ، فالثورة الآن باطشة ، وليست الحال كما كان عند وفاة المرحوم والدك . وأرى أن لا داعى أن تثير علينا البراكين ونعطل مصالحنا .

وساد بعض الصمت بعد حديث الباشا ، فوجدت نفسى أقول فى سرعة وفى حسم .

ـ يظهر يا معالى الباشا أننى لم أحسن عرض فكرتى . أنا لم أحضر للقاء معاليكم والباشاوات لنستأذن فى إقامة الحفل ، وإنما جئت أنا والأستاذ الشناوى لنخطركم أننى والأستاذ الشناوى سنقيم حفل تأبين لهيكل باشا ونسألكم فقط إن كان أحد منكم يحب أن يشترك فيه أم لا . إنما الحفل سيقام على أى حال يا معالى الباشا .

وصمت الباشا فترة ثم قال :

ـ أفكر .

أما الباشاوات الآخرون ، فقد وافقوا على الاشتراك جميعهم فى الحفل .

وأقيم حفل التأبين ، وأشهد أمام الله وأمامكم أن الباشا الذى حاول أن يمنع إقامة حفل هيكل باشا ألقى كلمة أعتبرها أنا أجرأ كلمة ألقيت فى الحفل جميعا .

رحمهم الله جميعا رجالا حين يعز الرجال . جمعوا الإباء والكبرياء إلى العلم الباذخ والخلق المتفرد الرفيع .

العوضى الوكيل

كنت أنتظر الشـهادة الابتدائيـة بغزالـة حين أمرنـى أبـى أن أصحـب الشاعر العوضى الوكيل إلى الزقازيق ليستقل القطار إلى القاهرة ، وكانت وسيلة المواصلات المتاحة عربة حنطور .

وفرحت أننى سأصحب هذا الشاعر الذى أقـرأ لـه فـى الأهـرام فـترة ساعة تقريبا .

وبدأ الحديث . أكلمه في السفر ويكلمنى فى المقرر . وكان واضحـا أنه يرفض أن يقبلنى كأحد هواة الأدب والشعر فأسلمت أمـرى إلى اللّـه وسكت كل منا .

وبعد ذلك عرفت أن سكوته كان أعجوبة فى ذاته ؛ فهـو بطبيعته لا يحب أن يسكت أبدا .

التقينا بعد ذلك فى القاهرة ، وعرفنى العوضى تمام المعرفة وعرفته تمام المعرفة ، فلم أر فى حياتى شخصا نقى السريرة طيب النفـس محبـا للخير مثل هذا الرجل .

وتعودت بعد ذلك أن أسمع شعره وأعجب به ، إلا أننى كنـت كثيرا ما أداعبه فأنقد بعض الألفاظ فى أبياته ، فكان لطيبته وسلامة نفسه يرتج عليه وترتسم على وجهه معالم الحيرة .

وقد عرف هذا عنى بين أصدقائنا من الشعراء والأدباء . حتى لأذكـر أن الشاعر الرصين الأستاذ خالد الجرنوسى أنشد قصيدة فى حفـل أقامـه أدباء العروبة بمناسبة حصـولى علـى ليسـانس الحقـوق ، وقـد كـان هـذا الحفل تحية من هذه الجماعة العظيمة الوفاء لأبى وليـس لى بطبيعـة الحـال وخاصة أنه لم يكن وزيرا فى ذلك الحين . وكانت قصيدة الأستاذ خـالد

الجرنوسى غاية فى الجمال وقوة السبك . وأستأذن فى ذكر هذا البيت منها لأستشهد به على ما كان بينى وبين الأستاذ العوضى من مداعبات:

الناقد الطبن اللبيب رأيته   يتفزع العوضى من نقدانه

وأذكر وأنا أنتظر نتيجة التوجيهية أن دعانى العوضى لأنزل ضيفا على كابينته فى أبى قير التى كان قد استأجرها واضطره العمل مع أبى فى القاهرة ـ فقد كان يعمل فى مكتبه ـ ألا يذهب إلى أبى قير إلا بعد عشرة أيام من تاريخ عقد الإيجار . وقبلت الدعوة ودعوت معى أيضا الأستاذ عثمان نويه .

وقبل سفرنا بأيام قليلة ، كان قد ظهر للعوضى الوكيل ديوان «أصداء بعيدة » ، وكان قد استكتبنى فيه كلمة عن الهجاء فى الشعر العربى . وكنت فى ذلك الحين أكتب نقدا فى جريدة الرسالة فكتبت كلمة قاسية عن الديوان . وأشهد اليوم أننى ما أردت بها إلا مداعبة الشاعر العظيم ، واتهمته فى الكلمة أنه يكتب شعره بسرعة فائقة لا تسمح له بالتجويد . وسلمت الكلمة للأستاذ محمد سكرتير تحرير الرسالة وسافرت أنا وعثمان نويه لنقضى أسبوعا فى كابينة العوضى الوكيل وكنت أرجو أن تتأخر الكلمة فى النشر حتى لا تظهر وأنا فى ضيافة الرجل . ويشاء العلى القدير أن تظهر الكلمة فى نفس اليوم الذى أنتظر فيه العوضى وعائلته على القطار لأسلمه مفتاح الكابينة . وكنت أعتقد أنه سيحمل الأمر على محمل المزاح كما تعودنا ولكننى وجدته حزينا ، وأخبرنى أن السيدة حرمه بكت لما قرأت الكلمة ، فرحت أمزح معه وأسترضى السيدة العظيمة زوجته حتى ضحكا وزال تماما ما علق بنفسيهما . وقال العوضى :

ـ على كل حال ، أنا كتبت ردا عليك سيعلمك ألا تصنع هذا معى أبدا .

فقلت له فى مرح الشباب وغروره :

ـ وليه بس ؟ طيب أنا سأرد على الرد وأريك .

ضحكنا وسلمته الكابينة ، وكان أبى قد جاء إلى الإسكندرية وذهبت لأقيم معه فى البيت الذى استأجره فى عامنا هذا . وظهرت مقالة الأستاذ العوضى فوجدته يقول فيها : « إن معالى والده معجب بسرعتى فى كتابة الشعر » ووضعنى هذا القول منه فى مركز حرج ، ولكننى وجدت منفذا . فكتبت كلمة قصيرة جدا قلت فيها : « يظهر أن الأستاذ العوضى الوكيل قرأ مقالتى بنفس السرعة التى يكتب بها قصائده . أرجو أن يقرأ مقالتى مرة أخرى » ونشرت الكلمة فى نفس اليوم الذى كنت أتمشى فيه مع العوضى فى ميدان المنشية بالإسكندرية . والتقينا هناك بالشاعر السكندرى الكبير عبد اللطيف النشار ولم يكن يعرفنى ، فإذا به يبدأ العوضى وهو يصافحه بقوله :

ـ ثروت أباظة ، قتلك اليوم بالرسالة .

فصاح العوضى :

ـ هذا هو ثروت أباظة يا سيدى .

وضحكنا جميعا .

ومن المداعبات التى لا أنساها مع العوضى أنه عين بعد ذلك مديرا لمخازن البريد ، وكان فرحا بالمنصب غاية الفرح ، فكتبت عنه مقالة فى جريدة المقطم قلت فيها إنه يضع على باب حجرته حاجبا له شارب كعارضة المرور ، فإذا أراد أن يسمح لأحد بالدخول فإنه يرفع شاربه ليسمح للداخل بالمرور .

وأذكر أننى قلت فى آخر المقالة : لقد خسر فيه الأصدقاء شاعرا مجيدا وما أظنهم كسبوا مديرا جديدا .

وفى يوم الجمعة التالى لظهور المقال كنت مع العوضى عند عملاق الأدب الأستاذ العقاد فقال له بصوته العظيم كصاحبه إن ثروت قال عنا ما نريد أن نقوله لك . وكان العوضى من أبناء العقاد المقربين ، وكان يعجب بشعره غاية الإعجاب .

والحقيقة أن العوضى الوكيل يعتبر علامة وضيئة فى جيله . وكان عزيز باشا أباظة يعتبره أكثر شعراء جيله رصانة وقوة سبك وتدفقا .

وأنا لا أستطيع أن أنسى فضل العوضى علىّ أستاذا فى اللغة العربية . فهو أعلم من عرفت بأصول اللغة وقواعدها ، سواء كان ذلك فى النحو والصرف أم فى علم البيان . وقد كان متفوقا فى ذلك على إخوانه وهم العلماء الكبار فى هذا الميدان ، فهم أبناء دار العلوم التى أرست قواعد اللغة العربية عهدا عهيدا من الزمان ، والتى ظلت علما خفاقا فى هذا الميدان . ولم ينكس العلم إلا حين أصبحت كلية تقبل أى منتسب لها بعد أن كانت لا تقبل إلا حملة ثانوية الأزهر الذين كانوا يدخلونها وهم حافظون للقرآن الكريم جميعا مع ألفية ابن مالك ، ومع إتقان لعلوم الأزهر التى تعد الشاب أحسن إعداد لتلقى الدراسة العليا فى كلية دار العلوم .

والأستاذ العظيم العوضى لم يكن يدرس لى أثناء السنة ، ولكنه كان بوفائه الذى لا مثيل له يبيت فى منزلنا ليلة امتحان اللغة العربية ويراجع معى كل القواعد لا يترك منها شيئا . وكانت تكفينى هذه المراجعة لأحصل على درجة مشرفة فى مادة اللغة العربية .

وقد كرم اللّه العوضى الوكيل إكراما لا مثيل له فى أبنائه ، فابنه البكر ممدوح طبيب عظيم فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وابنه الأصغر شريف حاصل على الدكتوراه فى العلوم وأستاذ فى جامعة الأزهر ، وابنته الوحيدة د. شفيق حاصلة على الدكتوراه فى الهندسة وأستاذة هى أيضا.

وقد درس شعر العوضى الوكيل فى عديد من الكليات فى مصر والخارج ، وكتبت عنه دراسات كثيرة وأنا مهما أتحدث عن عظمة شعره لن أبلغ ما أريد فى وصف هذه العظمة ، رحم اللّه الشاعر العظيم فى الخالدين.

* * *

وبعد ، فهذا نثار من ذكريات لا يجمعها فى نفسى جامع إلا الحب لمن ذكرت . لم أذكرهم لأكثر عددا ، ولكننى لم أجد بينى وبينهم من الذكريات ما يجوز له أن يروى .

فقد عرفت مثلا شيخ القضاة الرجل الذى كان جبلا ضخما فى عصره من الفقه والخلق الأبى الرفيع عبد العزيز باشا فهمى ، ولكننى عرفته كما يعرف الحفيد جده . وعرفت الرجل الذى كان سمة عصره فى الكبرياء والوطنية إبراهيم باشا عبد الهادى ، وكنت منه لفترة طويلة بمثابة الابن ، وعرفت غيرهما كثيرين من أعلام العصر أو من الأصدقاء الذين أبادلهم أجمل الحب وأكثره صفاء ويبادلون . ولكن لم أجد شيئا يمهد لى العذر أن أذكرهم عندك.

أم كلثوم

نشأت وأنا أجد أم كلثوم صديقة لوالدتى ولأسرتى جميعا . فمنذ وعيت أراها فى بيتنا كأنها واحدة من أسرتنا ، لا نفرق بينها وبين قريباتنا إلا أن اسمها لا يحمل لقب أباظة . وقد كان عمى عبد اللّه فكرى أباظة وزوجته من أكثر الناس صلة بها . وقد كان يدعوها إلى بيتنا فى غزالة دعوات متكررة تروح بها عن نفسها وتترك نفسها على سجيتها ، وكان لنا قريب مقيم بالريف اسمه السيد حسن أباظة . وكان يحب أن يمازح الناس وكان مزاحه فى غالب الأمر شتيمة وسبابا . وقبل أن أروى ممازحة السيدة أم كلثوم له أذكر عنه قصة من أظرف القصص التى سمعتها .

ركب يوما حصانا ، وأخذ طريقه إلى بلبيس وهى تبعد عن كفر أباظة حيث يقيم حوالى عشرة كيلو مترات . وكان فى ذلك اليوم يلبس حلة بيضاء ناصعة ، وكان يعتنى بشاربه كل العناية ويبرمه إلى أعلى فى فخامة وضخامة أيضا ويلبس الطربوش طبعا .

سار فى طريقه إلى بلبيس ، وراح يمازح ضباط الشرطة فى النقطة التى يعملون بها وكانوا جميعا أصدقاءه . وكان الحر قائظا فكان يميل على كل نقطة يشرب ماء أو ما يقدمونه له من مياه غازية .

ووصل إلى بلبيس ، وراح يمازح فى شتيمة وسب الضابط المسئول عن النقطة الواقعة على مشارفها ، ثم تركه وراح يقضى ما جاء من أجله إلى بلبيس . وبينما هو عائد مال على ضابط النقطة ، وراح الضابط يسرف فى تحيته وأقسم أن يقدم له زجاجة مثلجة من الكازوزة ، وقابل التحية بالشتيمة وشرب الزجاجة وانصرف .

وما هى إلا بضع خطوات حتى أدرك ما صنعه به ضابط الشرطة .

فقد سقاه شربة شديدة المفعول زاد من قوتها تقافز الحصان فى مشيته . ولك أن تتصور رجلا وقور المظهر ذا شارب يقف عليه الصقر يلبس حلة ناصعة وطربوشا أنيقا تفاجئه الحاجة فى عرض الطريق دون بيت يستر أمره .

وراح يقضى حاجته فى الحقول كل خمس دقائق أو عشر ، والطريق طويل والحر قائظ وضباط النقطة يعلمون جميعا ما صنعه زميلهم فى بلبيس ، فقد أخبرهم به بالتليفون الذى يربط بينهم فهم جميعا يترقبون مرور السيد بك .

ــ اتفضل يا سيد بك .

ويعرف من وجوههم أنهم علي علم بالمؤامرة .

ــ اللّه يخرب بيتكم جميعا . واللّه لأنتقم منكم شر انتقام .

ولكنه متقطع الأنفاس لا يكاد يقيم أوده على الحصان وقد اجتمع عليه الحر والحصان والعرق ومفعول الشربة .

وحين بلغ بيته كان قريبا من الموت ، لولا أن أهله أسعفوه بما يسعف به من فى مثل حالته .

ومع ذلك لم يكف السيد بك عن المزاح الشاتم لأصدقائه الذين كانوا يحبونه كل الحب .

وكانت أم كلثوم تحب أن تمازحه وتستخف دمه ، فكان إذا جاءت إلى غزالة يأتى فيقيم فى بيتنا طوال المدة التى تقضيها أم كلثوم فى غزالة . ومن أجمل ما سمعناه منها له تلك النكتة الشهيرة التى أصبحت على كل لسان . نظرت إليه طويلا بعد نوبة سباب انهال بها عليها ثم قالت له :

ــ يا سيد بك .

ودون توقع منه قال فى وقاحة :

ـ نعم يا بنت الشيخ إبراهيم .

فإذا هى تقول له فى بساطة :

شنبك متربى أحسن منك .

ويحمر وجهه من الغيظ ويدرك أن هذه النكتة ستلاحقه طوال حياته وأن مصر جميعها ستردده‍ا . ويحدث ما توقعه ولا يبقى من السباب الذى راح ينحدر من فمه شيئا .

كنت فى العاشرة أو أقل فى هذه الأيام التى كانت السيدة أم كلثوم فيها عندنا فى إحدى زياراتها . ولا أستطيع أن أنسى ليلة فيها اجتمعنا كلنا حولها : أبى ووالدتى وعمى وعمى عبد اللّه والسيدة زوجته التى كنا ندعوها تيتا . وراحت أم كلثوم تغنى دون أن يطالبها أحد بذلك ، فقد كانوا جميعا يقدرون أنها إن جاءت إلى غزالة لتكون على كامل حريتها وكأنها فى بيتها . وهكذا طاب لها هى أن تغنى فغنت وبغير موسيقى . وأشعر يومذاك أنى أحسست وأنا فى سنى الصغيرة هذه أننى انتقلت إلى عالم سماوى وأصبحنا جميعا مع هذا الصوت الذى حسبت أنه قادم من السماء مباشرة . وكأنما أدركت الفنانة الملهمة المشاعر السماوية التى أحاطت بنا ، فإذا هى تبسمل وتستعيذ من الشيطان الرجيم وتبدأ فى قراءة القرآن . الملائكة فى هذه الساعات حولنا والظلام الذى يلف الكون أصبح نورا إلهيا ما شهدنا له مثيلا من قبل و لم نشاهد له مثيلا من بعد . وظلت هذه المعجزة الربانية تصاعد بنا إلى السموات حتى الفجر وأنا طفل مفيق لا أفكر فى النوم ، وأن يظل طفل ملأ يومه باللعب والجرى طول اليوم يقظا مفيقا حتى مطلع الفجر أمر لا يحدث إلا أن ذلك الطفل يشهد معجزة لا عهد للبشر بها



أم كلثوم على شاطئ سيدى بشر تشاهد ماتش طاولة
بين دسوقى أباظة باشا ومدحت أباظة
وفى الصورة ثروت أباظة .. وكانت تعليقاتها تثير الضحك !

وكانت نهاية تلك الليلة جديرة بها . فإن أم كلثوم حين أدركت أن الفجر قد شق اليوم الجديد قامت وقمنا وراءها وخرجت إلى شرفة البيت وبأجمل صوت سمعناه أذنت أم كلثوم لصلاة الفجر . وبيتنا فى القرية يبعد عن بيوت القرية بمسافة لا تقل عن الكيلو متر . ولكن أهل القرية استيقظوا على صوت داعية السماء المعجزة وتقاطروا تتقاطر منهم أمواه الوضوء ووقفوا صفوفا يستمعون إلى أجمل أذان سمعوه فى حياتهم ، ثم اتجهوا إلى مسجدنا فى القرية وأقاموا الصلاة وظلت صلتنا بالسيدة المعجزة وطيدة طوال حياتها .

وأذكر أن أبى قبل الحرب كان يحلو له أحيانا أن يقضى جانبا من الصيف فى أوربا ليعالج الروماتزم فى بلاد تخصصت فى ذلك ، فكان عمى عبد اللّه فكرى يستدعينى أنا وأخى شامل لنقضى الصيف معه فى رأس البر . وكانت السيدة أم كلثوم تصطاف فى ضيافة السيدة زوجته ، وكان يصحبها ابن أخيها صديقى محمد دسوقى وأخته . وأذكر واقعة تدلك على قيمة الجنيه المصرى فى ذلك الحين . حدث أن دعيت أم كلثوم لإقامة حفل زفاف فى القاهرة قبيل انتهاء الصيف . وأرادت أن تعتذر فقد كان عندها رغبة شديدة أن تكمل مصيفها . وتداولت الأمر مع عمى عبد اللّه وانتهى رأيهما أن تطلب مائة وخمسين جنيها لإقامة الليلة ، وكان هذا الطلب على سبيل التعجيز لأصحاب الفرح . وكنا فى منتصف الثلاثينات قبل الحرب العالمية الثانية ببضع سنوات ، ولم يكن فى رأس البر كلها إلا تليفون واحد له كابينة على النيل . وطلب إلىّ عمى عبد اللّه أن أذهب فى الموعد المضروب إلى هذه الكابينة وأنتظر تليفونا من القاهرة يطلب أم كلثوم وأجيب الطالب ، وأذكر له أن الآنسة أم كلثوم تقبل أن تقيم الحفل بشرط أن يدفع لها مائة وخمسين جنيها . وتم

الأمر على هذه الصورة فإذا الرجل الذى يحدثنى يقبل دون ريث من تفكير وأخبرها بذلك وتوافق هى تحتسب اللّه فى المصيف .

واستمرت الصلة وكبرنا وتوفى عمى عبد اللّه ، ولكن صلة الأسرة بأم كلثوم بقيت كما هى . وحدث فى الستينات أن كلفنى الأديب الكبير المرحوم عبد الحميد جودة السحار وكان فى ذلك الوقت رئيس مجلس إدارة مؤسسة السينما أن أكتب فيلما سينمائيا معتمدا على مجنون ليلى لأحمد شوقى ، وأن أختار من رواية شوقى قصائد لم يسبق لها أن غنيت ، واتفق مع أم كلثوم وعبد الوهاب أن يغنيا هذه الأغانى على أن يقوم بتمثيل دوريهما ممثلة وممثل . وأعجبتنى الفكرة ونفذتها مع الفنان الكبير يوسف فرنسيس ككاتب للسيناريو ، وتوليت أنا تأليف القصة وكتابة الحوار . واختارت المؤسسة المخرج العظيم كمال الشيخ .

وأتممنا العمل ولم يبق إلا موافقة أم كلثوم وعبد الوهاب وأنا على صلة بمعجزة الموسيقى والغناء العربى عبد الوهاب منذ عام ٤٦ تقريبا وهو صديق لكثيرين جدا من أسرتنا . وليس عجيبا أن يوطد صلتى به حبى الذى لا حدود له لأمير الشعراء الذى يعتبره عبد الوهاب أباه الروحى . كلمت موسيقار الأجيال فى التليفون وأرسلت إليه السيناريو وفيه الشعر الذى اخترته وسعد به غاية السعادة .

وأخذنا موعدا من المعجزة الأخرى أم كلثوم . وأذكر أننى ذهبت إليها ومعى السحار وكمال الشيخ لنعرف رأيها فى السيناريو بعد أن كنا قد أرسلناه إليها قبل الموعد ببضعة أيام .

ووافقت هى الأخرى عليه دون ملاحظات ثم رحنا نخوض فى أحاديث عامة . وأذكر أنها قالت فى هذا اليوم جملة مازلت معجبا بها حتى اليوم .

ـ لقد حاولت الصحافة أن تصنع منى بطلة سياسة بعد ثورة يوليه فرفضت هذا تماما وقلت فى تصريح لى : إننى فنانة لا أتدخل فى السياسة ولو كان الملك فاروق قد دعانى لأغنى فى قصره يوم ٢٦ يولية عام ١٩٥٢ للبيت الدعوة وأنا سعيدة .

ولعل هذه الجملة من سيدة لم تعرف عنها إلا كل ما هو نقى وشريف ورفيع من الخلق تكون درسا للمهرجين الذين يحاولون فى أقلامهم أن يجعلوا الراقصات والساقطات معالم مصر التاريخية .

وكان من أعظم ميزات أم كلثوم حبها للأدب وحفظها للشعر وحساسيتها الراقية فى اختيار أغانيها ، وتلك ميزة يتمتع بها محمد عبد الوهاب . كنت معه فى بيته عش البلبل الذى بناه فى الهرم وطلبه مؤلف أغان وراح يسمعه كلمات فى التليفون ، وطبعا لم أكن أسمع شيئا مما يقول ، ولكننى أخذت بعبد الوهاب وهو يقول لمحدثه .

ـ يا أخى مش عارف ليه كلمة دمعة اللى بتقولها بتفكرنى بالملوخية.

وضحكت معجبا بحساسيته العظيمة بإشاعات اللفظ والإحاطة بكل ما يثيره من معان .

أما أم كلثوم فتحفظ كثيرا من الشعر ، ونطقها للعربية قمة فى النقاء ، وما هذا بغريب على سيدة بدأت ثقافتها بحفظ القرآن وتجويده وتلاوته. حدث لى حادث سيارة اضطرنى أن ألزم الفراش بضعة أسابيع فى بيتى الذى أقيم فيه الآن فى الزمالك . وجاءت السيدة أم كلثوم لزيارتى . وكان المفروض أن تبقى بضع دقائق ريثما تشرب ما يقدم لها أهل البيت من إكرام ، ولكن حلا لها أن تكلمنى فى الشعر فإذا زيارتها تمتد ثلاث ساعات كاملة دون أن نشعر بالوقت .

ومن أعظم سجايا أم كلثوم أنها لم تتنكر لماضيها قط .

دعتها والدتى إلى الغداء فى بيتنا بالعباسية . وقبل الغداء قالت لها والدتى :

ـ إنى أعددت لك مفاجأة على المائدة أعتقد أنها ستسرك كل السرور .

فقالت :

ـ نشوف .

وحان موعد الغداء وقمنا إليه ، وكانت هناك صينية تتوسط المائدة وعليها غطاء وجاءت والدتى ونحن ما نزال وقوفا ورفعت الغطاء فى فخر وثقة لتظهر لأم كلثوم المفاجأة التى أعدتها لها . ونظرت أم كلثوم العظيمة الواثقة بنفسها ثم قالت فى لهجة غاية فى خفة الدم والطرافة .

ـ ما هذا حميض . إيه جابك هنا ... والله زمان يا حميض .

ونظرت إلى أمى وقالت :

ـ هى دى يا أختى المفاجأة ... والله زمان لأذوقه أبدا . هو انا كان لىّ شغلة أيام الفقر إلا الحميض من الغيطان وأكله ... شيلى ... شيلى .

والحميض نبات شيطانى ينبت فى حقولنا ويأكله من لا يستطيع شراء غيره .

أرأيت مثل هذه العظمة وهذا الصدق ... رحم الله أم كلثوم علامة أجيال فى الفن وفى الخلق على السواء .

* * *

وبعد ، فهذه نثار من ذكرياتى ما رجوت منها إلا أن أنادمك إذا قرأتها فى نهار أو أسامرك إن قرأتها فى مساء ، وقد أطلقت نفسى تمتح من معين الأيام ما يحلو لها . فهى تختار ولا تؤلف .

والاختيار عسير ، ولكنه ممتع إذا أحس الإنسان أنه قال ما يحب أن يقول .

فإن كنت بلغت من نفسك ما تمنيت أن أبلغ فأحمد اللّه إليك ، وإلا فحسبى أن النية صدقت عندى وأقدمت على هذه التجربة الجديدة فى دنيا الكتابة أو فلنقل الجديدة على قلمى أنا بعد أن مارس مخاطبة الناس نيفا وأربعين عاما . ومع التجربة لا يكون العثار مأمونا ... فإذا كان القلم تعثر عند أعتابك فإني واثق أنه من وسيع سماحتك ومن رضى خلقك ما يغتفر جرأته . وفى رحمة اللّه الغفور التواب مثابة تسع الدنيا جميعا ، ولا بأس أن أجد عند الذى نعبده طمعا ورهبا أثارة من الغفران وفضلا من الرحمة جل شأنه وتقدست آلاؤه ؟

ثروت أباظة